القسم الثاني

دراسة شبكية
لعملية التكامل الاجتماعى

الفصل الأول

المستويات والمواقف

معنى المستوى – معنى الموقف – أهمية كل من المفهومين

لا تكتمل دراستنا لعملية التكامل الاجتماعى إلا إذا قمنا بدراسة شبكية ، نكشف فيها عن مختلف العوامل التى تتدخل فى تحقيقها وفى تشكيلها . أما الاقتصار على الدراسة الارتقائية فيوهم بأن المسألة مسألة مستويات من الارتقاء البيولوجى تتحقق بتحققها أنماط متتابعة من التكامل دون أن يكون للعوامل المختلفة الأخرى فى مجال حياة الشخص أى مساهمة فى تحقيق هذه الأنماط أو تشكيلها . ومنعاً من حدوث هذا الوهم ، وزيادة فى توضيح وتفصيل فكرتنا عن عملية التكامل الاجتماعى رأينا أن نقوم بهذه الدراسة المكملة .

بعبارة أخرى ، إن دراسة عملية التكامل الاجتماعى من خلال مفهوم « المستويات » فحسب غير كافية لتوضيح جميع جوانب العملية . لذلك ينبغى أن ندرسها أيضاً من خلال مفهوم « المواقف » ، على أن يتسع هذا المفهوم بحيث يتضمن جميع العوامل التى تؤثر فى العملية بطريق مباشر أو غير مباشر ، كالعوامل الحضارية والاجتماعية والاقتصادية ، ونظام التربية ، ونمط العلاقات الأسرية . . . ألخ . وهذه الدراسة هى وحدها التى تستطيع أن توضح لنا السبب فى اختلاف الاستجابات الاجتماعية للأطفال الذين يشغلون مرحلة واحدة من مراحل العمر الزمنى ، بحيث يقال عن بعضهم إنه متقدم وعن البعض الآخر إنه متأخر . كما يلاحظ أن بعضهم يبدى أنماطاً من الاستجابات لا يبديها البعض الآخر . وهذه الدراسة هى وحدها أيضاً التى تستطيع أن تكشف لنا عن الكثير من دقائق عملية التكامل ، ودلالة الفرد داخل الجماعة ، وذلك نتيجة لغلبة

النظرة التحليلية عليها ، ولاعتمادها فى كثير من الأحوال على الدراسة التفصيلية لحالات أو نماذج فردية .

لقد تحدثنا فى بعض الفصول السابقة — فى الجزء الأنتوجينى — عن ارتقاء اللغة والذاكرة باعتبارهما من أهم شروط الارتقاء الاجتماعى للطفل ومظاهره ، وبينا كيف يمضى ارتقاؤهما فى مراحل مرتبطة — إلى حد ما — بمراحل معينة من العمر الزمنى . إلا أن الحدود الفاصلة بين هذه المراحل غير ثابتة دائماً ، بل إنها لتتذبذب من فرد إلى آخر داخل الأسرة الواحدة كما تتذبذب فى نطاق أوسع إذا ما فحصنا أفراداً من مستويات اجتماعية اقتصادية مختلفة . كذلك الحال فيما يتعلق بدرجة الارتقاء التى يصل إليها الأفراد فى ظروف اجتماعية مختلفة . وقد أجرت ديكودر A. Descœudres بحثاً فى المحصول اللغوى عند الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين سنتين وسبع سنوات ، وانتخبت مادة دراستها من أطفال الطبقة العاملة وبعض الطبقات المرفهة التى يلقى أطفالها حظاً متفوقاً من التعليم . فانتهت إلى أن أطفال الطبقات المرفهة يفوقون أطفال الطبقة العاملة بشكل واضح ، إذ يتقدمونهم بما يعادل ثمانية أشهر فى كل مرحلة . وكتبت كولنز تعلق على ذلك بقولها : لم يكن هناك ما يدل على أن أطفال العائلات العمالية ذوو عقلية متأخرة أصلاً ، ولكن يعزى هذا الفرق إلى قلة الفرص المواتية نسبياً ونقص الوراء الثقافى (M. Collins 1939) . كذلك قامت هيرتسمان A. Hertzman بدراسة الذاكرة البصرية لدى الأطفال فى السن السابق على الالتحاق بالمدرسة ، فكانت تضع قطع الشيكولاتة تحت صناديق ورقية مختلفة الألوان ، وكان على الطفل أن يتذكر تحت أى صندوق توجد قطعة الشيكولاتة . وقد وجدت أن الأطفال — وكانت أعمارهم تتراوح بين ٥,٤ سنوات — من الطبقتين المتوسطة والعاملة ، بينهم اختلاف واضح . فالأطفال القادمون من أسر من الطبقة المتوسطة يتفوقون على أطفال الطبقة العاملة بما يتراوح بين ٣٠ و ٥٠ ٪ من مرات النجاح. (C. Buhler 1937, p. 123) كذلك فيما يتعلق بمرحلة المراهقة كان الاتجاه

التقليدى السائد إلى وقت قريب يقرر أن هذا الشكل الذى تتخذه عادة كأزمة عنيفة ذات نتائج خطيرة فى تقرير مستقبل الفرد إنما يحتمه المستوى الارتقائى بما له من مضمون فيزيولوجى يعينه نمو الفرد، إلا أن بعض الدراسات الحديثة أخذت توضح بفضل البحوث الأنثروبولوجية والمقارنة بوجه عام — مدى عمق الآثار الحضارية والاجتماعية فى هذا الصدد. (R.T. La Piere & P.R. Farnsworth 1942, p. 226)

هذه الحقائق المترتبة على هذه البحوث وأمثالها ، هى الأسس التى استند إليها مورفى G. Murphy فى تحذيره من الاندفاع فى استخدام مفهوم المستوى أو المرحلة [1]. فهو يقول إن « المرحلة » ظاهرة من ظواهر الارتقاء . ومما لا شك فيه أن كل إنسان يمضى فى مراحل الطفولة والنضج والشيخوخة . ولكن مما لا شك فيه أيضاً أن كل شخص يخترق هذه المراحل بطريقة مختلفة . فمن الأشخاص من لا يبلغ النضج الوجدانى أبداً ، ومنهم من يصبح طفلاً فى شيخوخته ، ومنهم من يحتفظ بوقاره وبالاهتمام بالحياة طوال العمر . ومن ثم فمن الخطورة بمكان أن ننظر إلى أى سلوك مما لا يرتبط ارتباطاً وثيقا بارتقاء الوظائف البيولوجية ، فى ضوء فكرة المراحل . مثال ذلك أننا قد نجد فى نمو النشاط الحركى ، والارتقاء الفكرى الحسى ، والوظائف التناسلية ، قد نجد فى نموها وذبولها أساساً حقيقياً لمراحل فى السلوك الاجتماعى يعتمد عليها . ولقد شجعنا ذلك على أن نأمل فى أن نجد فوارق على أساس مراحل العمر تفسر الجوانب المختلفة للسلوك الاجتماعى . وهذا صحيح إلى حد ما ، فالطفل فى سن السنتين لا يؤلف عصابات ، أما فى العاشرة فإنه يؤلف. فإذا توغلنا أكثر من ذلك فإن كل طفل يمر بمرحلة الكلام الناقص قبل أن يبلغ مرحلة السيطرة على اللغة ، كما أنه يجتاز مراحل متتابعة فى السيطرة على الحركة والتآزر الجسمى العام .ومع ذلك فإن الاعتماد الشديد على فكرة المراحل ينطوى على أخطار بالغة . فمن الأطفال من لا يكون على استعداد للقراءة قبل سن السابعة ، ومنهم من يمارسها فى سن الخامسة. وفى حين نجد بعض الأطفال يقومون بالألعاب

---

(١) stage

التمثيلية قبيل الرابعة أو الخامسة ، نجد بعضهم يقومون بها فى سن الثالثة . والواقع أن لكل المراحل أطرافاً غير محدودة ، تتداخل فى أطراف المراحل الأخرى إذا ما تناولنا بالنظر مجموعات من الأطفال فى وقت واحد . وللمراحل بالنسبة للأفراد مداخل ومخارج متعددة ، وليس هناك فردان يجتازان جميع المراحل بطريقة واحدة . فنمط التتابع بين القدرات الحركية واللغة والسلوك الاجتماعى — كالعدوان والتعاون والتعاطف — مختلف بالنسبة للأطفال المختلفين . ونمط الشخصية الذى يعطى صفة فردية لمراحل معينة يؤدى إلى خبرات متباينة فى كل مرحلة لكل طفل .

(G. Murphy & others 1937, p. 323)

ومع أن البحوث التى تؤيد هذا الرأى الذى يقرره مورفى قد تتابعت وتعددت بشكل ملحوظ فى العشرين سنة الأخيرة فإننا لانزال نجد بعض كبار العلماء يقللون من أهمية مفهوم المواقف ، ويكادون يقتصرون فى معالجتهم للسلوك الاجتماعى لدى الأطفال على مفهوم المستويات . ومن هذا القبيل جيزيل وإلج A. Gesell & F. L. Ilg فى كتابهما « الوليد والطفل فى حضارتنا الراهنة » . فبالرغم من هذا العنوان الذى يوحى بالاهتمام بآثار الإطار الحضارى ، نجد المؤلفين يلحان على إبراز أهمية « النضوج » . وقد انتقدا النظرية السلوكية لأنها تبالغ فى الاهتمام بالبيئة ، وبالتالى تتورط فى التسليم بأشياء أكثر مما يطابق الواقع . إلا أن المؤلفين ردّا على ذلك بالمغالاة فى تأكيد أهمية العوامل الفطرية والوراثية ، على حساب العوامل البيئية . وهما يبدوان وكأنهما يريدان أن يقررا أن النمو والارتقاء يتمان فى الزمن ، فما علينا إلا أن ندع الوراثة وشأنها ونتيح لها أكبر فرصة لتشكل هى الأمور وفق ما تشاء . ومع أن جيزيل كتب فى سنة ١٩٣٠ يقول إن النمو يحل « التناقض القائم بين الفطرة والبيئة مُظهرا الجانبين فى مشهد دينامى موحد » وهذا القول يدل على أنه سيحرص على التمسك بطرفى التناقض لإبراز أثر كل منهما فى العملية الناتجة عن تفاعلهما ، مع ذلك فإنه يعود فى مؤلفه الحديث فيقرر أن الأهمية الكبرى للوراثة من ناحية الأسرة والسلالة على أساس أنها تعين نتائج النمو ونمطه المتميز لدى كل طفل على حدة .

(N. Israeli 1945) وقد أشار لڤين K. Lewin إلى هذا الموقف عند جيزيل والمواقف الأخرى المشابهة، أشار إليها بطريقة عابرة عند ما تساءل قائلا : لم لا يوجد عندنا علماء النفس الذين يعنون بتأثير الحضارة فى الشخصية والسلوك ؟ ثم أجاب بقوله : يحدث كثيراً فى تاريخ العلوم أن نجد بعض الصعاب الموضوعية تتعاون مع عواطف معينة على سد الطريق أمام الباحثين . (K. Lewin 1943) .

يلزمنا إذاً دراسة السلوك الاجتماعى من خلال المواقف ، مع الحرص الشديد على إبراز متغيراتها المتعددة ، وأثر كل متغير على حدة ، كلما أمكن ذلك . وتكون دراستنا أكثر تعمقاً وأكثر دقة كلما اقتربنا من تحقيق هذا الهدف . « فالموقف» الاجتماعى وكذلك «البيئة » الاجتماعية بعيدان عن أن يكونا متجانسين . كذلك يلزمنا فى هذه الدراسة الحرص على إبراز جوانب الشخصية ، كالذكاء ، والقدرات الحسية الحركية ، والتعبيرات الوجدانية ، والتحصيل اللغوى . . . الخ ، وذلك لإبراز مدى تأثير متغيرات المواقف فى كل منها ، وهل هى جميعاً فى درجة واحدة من الثبات أمام تأثير هذه المتغيرات ، أم أن بعضها أشد ثباتاً وأكثر مقاومة من البعض الآخر ، ثم إلى أى مدى تساهم هذه الجوانب فى تنميط السلوك الاجتماعى للشخص . وأخيراً يلزمنا توضيح حقيقة هامة ، ومؤداها أن هذه الجوانب المختلفة يتفاوت حظها من الثبات فى مراحل العمر المختلفة ، ومن هنا يكون للتغييرات التى تطرأ على بعض جوانب البيئة تأثير عميق فى تشكيل سلوك الشخص ، أعمق مما قد يطرأ على هذه الجوانب نفسها فى مراحل أخرى من العمر .

وقد أوضحنا من قبل كيف أن الطفل فيما بين الثالثة والخامسة من العمر يستطيع أن يتحمل الانفصال عن أمه دون أن يتعرض للآثار السيئة التى يتعرض لها طفل أصغر منه . كما أن الطفل فيما بين الخامسة والثامنة يبدى قدرة أكبر على احتمال هذه الخبرة القاسية . ومما يسترعى الانتباه أن نتائج الانفصال عن الأم تختلف عند الطفل فى حوالى الثامنة من عمره اختلافاً كبيراً عنها عند الطفل فى سن دون ذلك . إذ نلحظ أن أطفال الثامنة الذين كانت علاقاتهم بأمهاتهم طيبة قبل

الانفصال يتحملون دون أن يقعوا فريسة للكثير من الآثار السيئة ، والأطفال الذين كانت علاقاتهم بأمهاتهم سيئة تزداد قابليتهم للتأثر السيئ بالانفصال . أما الأطفال الذين كانوا دون الثامنة فقد كانت نتائج الانفصال لديهم عكس ذلك . وقد أشرنا فى موضع سابق * إلى البحوث المتعددة التى تثبت بوضوح عمق الآثار السيئة التى تترتب على تهدم الأسرة أثناء الطفولة المبكرة ، أو الانفصال عن الأم فى هذه المرحلة . وهذه الحقيقة تتفق والمبدأ الذى انتهت إليه البحوث الإمبريولوجية الحديثة من آثار الصدمات والتسمم والعدوى ، وما إلى ذلك من عمليات مؤذية للجنين ، لاتتفاوت فقط تبعاً للعامل المسىء وبناء النسيج الذى وقعت عليه الإساءة ووظيفته ، ولكنها تختلف أيضاً تبعاً لدرجة نضج هذا النسيج (J.Bowby 1951 ,pp. 146,) .

والخلاصة أننا لن نفهم المشاكل الأساسية فى علم النفس الاجتماعى إلا إذا تعمقنا فى بحث الصلات القائمة بين « الفرد الآخذ فى الاندماج فى الجماعة» وبين شكل الجماعة ونظامها ومضمونها الوجدانى . إن السلوك الفعلى للفرد فى أية مرحلة من مراحل العمر يمثل قطاعاً فى حاجات الطفل وقدراته البيولوجية إذ تقابل المطالب والفرص التى يقدمها « الموقف » للطفل. ومن ثم فكثير من المراحل لاتتحقق لمجرد أن مجرى النمو والارتقاء يتطلبها ، بل هى غالباً نتيجة تنبيه من موقف ذى خصائص معينة (G. Murphy & others 1937, p. 328) وليس فى هذا القول أى محاولة للإقلال من شأن الحتمية البيولوجية ، فنحن نعلم أن عادات النوع — كالمشى والقبض باليد والجلوس . . . — تكاد تتوقف فى ظهورها وتتابعها ، وانتظام نمطها على مستوى النمو العضوى . ونعلم أن الطفل فى مجتمع الهوبى رغم أنه يظل موثوقاً إلى لوح خشبى مدة ٢٣ ساعة يومياً ولا يفك وثاقه إلا ساعة واحدة ، فإنه عند ما يفك وثاقه يقوم بالكثير من الحركات التى يقوم بها طفل لم تمنع أعضاؤه من الحركة ؛ فيضع أصبعه فى فمه ويحاول أن يمسك الأشياء القريبة ويقربها من فمه ،

* الفصل الثالث من الباب الثانى .

ويحرك ساقيه فى الهواء ويضع أصابع قدميه فى فمه. كما أن مراحل الجلوس والزحف والمشى تتوالى بنفس الترتيب الذى تتوالى به فى حضارتنا (W. Dennis 1947) إلا أن جوانب السلوك هذه ليست كل الجوانب ، كما أنها ليست أهم الجوانب التى ينبغى أن يوجه الباحث فى علم النفس الاجتماعى نظره إليها ، وربما كانت الجوانب الأخرى ، الأكثر اعتماداً على المواقف والمناخ الحضارى ، أهم منها ، وأجدر بانتباه الباحث النفسى الاجتماعى . ومع ذلك فنى صميم مهمته أيضاً أن يفرق بين الجوانب المختلفة من حيث درجة تأثرها بالعوامل البيئية لتكون نتائج بحثه أكثر دقة ومطابقة للواقع .

الفصل الثانى

الشعور بالنحن

النحن والفرد – النحن والمجتمع – الجماعات المراجع

يمكن اعتبار « الشعور بالنحن » وانعكاسه فى التعبير اللغوى للشخص أوضح مظهر للتكامل الاجتماعى بين أعضاء أية جماعة . إلا أنه لا يمكن الوقوف عنده ، إذ أنه لا يكشف لنا عن درجة ارتقاء هذا التكامل ، ولا بد إذاً من الرجوع إلى مقاييس أخرى . وقد أوضحنا من قبل عدة أمثلة لتحقق النحن ، تختلف فيما بينها من حيث مستوياتها الارتقائية ، كعصابات الأطفال بعد الثامنة ، وجماعات المراهقين والراشدين . ومن أمثلة المقاييس الأخرى التى ينبغى الرجوع إليها مدى الاستقرار ، والتعاون المشعور به ، والتغاير بين أعضاء الجماعة .

إلا أن الشعور بالنحن ، يمكن أن يعتبر مع ذلك نقطة للبدء لا بأس بها . ويندر أن يوجد من الناس من يستطيع مواصلة الحياة السوية دون دخول فى «نحن» . (H. Schulte 1938) . وأوضح ما يكون هذا الشعور داخل الجماعات التى يطلق عليها كوفكا اسم « الجماعات السيكولوجية »[1] . (K. Koffka 1935) أو التى يطلق عليها فارس E. Faris اسم « الجماعات الأولية »[2] . (E. Faris 1932) . ومن أمثلتها : جماعة من الأقرباء المنتشرين فى بلاد مختلفة ويتواصلون بالرسائل أو بأية وسيلة أخرى ، أو شخصان متحابان يؤثر كل منهما فى أفعال الآخر وعواطفه وأفكاره ، أو أشخاص يعملون فى سبيل قضية واحدة . ويصف كولى C.H. Cooley سلوك الأفراد داخل هذه الجماعات بقوله ، إن النتيجة النفسية للارتباط

(١) psychological groups

(٢) primary groups

الرشيق هى نوع من الامتزاج بين الأفراد فى كلٍّ مشترك ، بحيث نجد أن ذاتنا نفسها تصبح هى الحياة المشتركة للجماعة ، ويصدق هذا على الأقل بالنسبة لبعض أهدافنا . وربما كانت أيسر الطرق لوصف هذا الكل أن نقول إنه «نحن» ، فهو يتضمن ذلك النوع من التعاطف والتقمص المتبادل الذى تبرز « النحن » بمثابة تعبير طبيعى عنه . فالفرد يعيش فى الشعور بالكل ، ويجد الأهداف الرئيسية لإرادته ماثلة فى ذلك الشعور[1] . ويقول فرتهيمر M. Wertheimer فى هذا الصدد : عندما يعمل مجموعة من الناس سويًّا ، فقلما يحدث أن يقتصر أمرهم على تكوين مجموعة من الأنوات المستقلة ، بل بالعكس ، يحدث غالباً أن يصبح المشروع العام محل عنايتهم المشتركة ، فيعمل كل منهم كجزء له دلالته الخاصة فى الكل . ولنضرب لذلك مثلا جماعة من أهل الجزر فى بحار الجنوب وقد انهمكوا فى عمل جمعى ، أو مجموعة من الأطفال يلعبون سويًّا . ولا يحدث إلا فى ظروف خاصة جدًّا أن توجد « أنا » واقفة وحدها . (M. Wertheimer 1938 b) . ويقول شولته H. Schulte إن الشخص داخل النحن يشعر ويفكر ويعمل ، لا باعتباره « أنا » فى مقابل أنوات أخرى ، بل كعضو فى جماعة . فنجد أن عمله وفكره بل وإدراكه يتشكل تبعاً لعضويته فى الجماعة · (H. Schulte 1938) .

ويتألف المجتمع من عدد من الجماعات السيكولوجية ، بحيث يمكن اعتبار هذه الجماعات هى الوحدات الدينامية الأولية فى البناء ، أو بعبارة أخرى هى الخلايا التى يتألف منها جسم المجتمع . وعلى هذا الأساس ينبغى إعادة النظر فى المقدمة الأولى لنظرية العقد الاجتماعى وما شابهها من نظريات ميكانيكية ذرية * ، إذ تقرر أن الفرد هو الوحدة الأولية للمجتمع .

---

(١) C.H. Cooley, "Social Organization", 1923 (Through E. Faris 1932).

* يلاحظ أن هذا الرأى يناظر الرأى الذى توصلنا إليه فى بحثنا « الأسس النفسية للإبداع الفنى » ؛ فقد توصلنا حينئذ إلى القول بأن الوحدة الدينامية الأولى للقصيدة هى « الوثبة » وليست البيت . فلا يظهر البيت فى ذهن الشاعر أثناء عملية الإبداع ولا تكتمل دلالته إلا من خلال عدد من الأبيات التى تؤلف معه وحدة دينامية أصيلة . وتتألف القصيدة فى النهاية من عدد من الوثبات

وتتفاوت درجات التكامل ، ودرجات الشعور بالنحن ، فى هذه الجماعات السيكولوجية تبعاً لعدة عوامل . فالجماعات السيكولوجية التى تتألف من الزوج وزوجه تسمح بدرجة من الاقتراب والتفاعل — فى حالات الزواج الموفق — تفوق كثيراً ما تسمح به جماعات الصداقة . كما أن الجماعات التى تتألف لخدمة قضية معينة قد تفوق فى درجة التكامل بين أعضائها ما تحققه الجماعات الأسرية وجماعات الصداقة .

إلا أن هذه الجماعات تتفق فى حقيقة معينة ، لها أهميتها الخاصة بالنسبة للباحث فى السلوك الاجتماعى ؛ ذلك أنها هى الوسائط التى لا بد منها لارتباط الفرد بالمجتمع . هى الوسائط التى من خلالها يتم تقطير قيم المجتمع وتقاليده وعاداته فى نفس الفرد . بعبارة أخرى هى الوسائط التى من خلالها يتم تطبيع الفرد . ومن هنا كانت هذه العملية أعنى عملية التطبيع بالغة التعقد ، لأنها لا تتم بشكل مباشر ، ولأن الجماعة تنتخب — على أسس معينة — من بين مجموع قيم المجتمع وتقاليده وعاداته مجموعة خاصة بها ، وتقدمها دون سواها للفرد الذى يقوم بدوره بانتخاب جديد . ولأن الفرد تتعدد عضويته فى جماعات سيكولوجية مختلفة تحاول كل منها أن تقطر له مجموعة خاصة بها .

لهذا السبب كان لزاماً على الباحث فى السلوك الاجتماعى أن يهتم بهذه

يمكن تحديد بداية كل منها ونهايتها ، كما أن العلاقة بين كل من هذه الوثبات وبين البنـاء الكلى للقصيدة تختلف اختلافاً أساسياً عن العلاقة بين البيت والقصيدة . وكذلك الحال فى المجتمع ، فهو بناء دينامى يتألف من وحدات دينامية صغرى هى أيضاً أبنية ، وهذه الأبنية هى « الجماعات السيكولوجية » ولهذا التناظر دلالة فلسفية تعبر حدود الدراسة السيكولوجية المتخصصة . إذ يمكننا أن نرى فى هاتين الحقيقتين ، الأولى الخاصة بعملية الإبداع الفنى والثانية الخاصة بعملية التكامل الاجتماعى ، بعض الأمثلة التى تشير إلى كيفية حل إحدى المشكلات المنهجية الهامة فى البحوث العلمية الحديثة ، وهى : إلى أى مـدى يمكن تحليل الأبنية أو المركبـات تحليلا لا ينتهى إلى تغيير طبيعتها ؟ هل يمكن الاستمرار فى عملية التحليل دون توقف ؟ وإذا كان لا بد من التوقف فى موضع ما فما هى الشروط الموضوعية التى لا بد من توفرها فى الموضع الذى تتوقف عنده ؟ بعبارة أخرى ما هى خصائص الوحدات الأولية للأبنية أو المركبات ؟

الجماعات . فعن طريقها يمارس الفرد عضويته فى المجتمع ، ولا يمارسها بطريق مباشر. وقد أجرى مايو Mayo وآخرون عدة بحوث فى سيكولوجية العمال فى بعض المصانع ، انتهوا منها إلى أنه فى أى قسم من أقسام المصنع كان العمال يأتلفون (سواء أقصدوا إلى ذلك أم لم يقصدوا) فى جماعات لها عاداتها الخاصة وواجباتها وأساليبها الثابتة بل وطقوسها . بل إن هذه الحقيقة لتبدو من الوضوح أمام الباحثين بحيث يقررون أنها لا تصدق فى ميدان الصناعة فحسب بل وفى الميادين الإنسانية الأخرى ؛ إذ نجدنا دائماً بإزاء جماعات إنسانية صغرى متماسكة بشكل واضح. فإذا حيل بين الأفراد وبين تكوين هذه الجماعات بفعل أى طارئ خارجى فالنتيجة المباشرة متاعب متعددة . (E. Mayo 1949, pp. 72, 99) فتكوين هذه الجماعات إذاً عملية تلقائية . وعندما ننظر نظرة تاريخية ابتداء من المجتمعات الموغلة فى البدائية إلى أكثرها تطوراً وارتقاء لا نستطيع أن نجد مجتمعاً واحداً ، فى أى مستوى من المستويات الارتقائية خلا من هذه الجماعات ومارس الأفراد عضويتهم فيه بطريق مباشر . إننا نجدها تقل بحيث يزداد المجتمع تجانساً كلما أوغل فى البدائية ، لكنها لا تختفى اختفاء تاماً . وهذه الحقيقة التاريخية تزيد فى تأكيد أهمية هذه الجماعات وتبرز دلالتها الجوهرية فى بناء المجتمع البشرى . فليست شيئاً عابراً ، ولا وليد ظروف خارجية بحيث يمكن أن تزول بزوال هذه الظروف . ولو أن هذا لا ينفى أنها تتشكل تبعاً لفعل هذه الظروف .

ومما يؤكد أهميتها أيضاً ما تكشف عنه بعض البحوث الحديثة من عمق آثارها فى الفرد. وقد أورد مايو E. Mayo مثالا على ذلك حالة عاملتين فى أحد المصانع رفضتا الترقية وزيادة الأجر لأن القبول كان يحتم عليهما الانتقال إلى قسم آخر فى المصنع وترك جماعتهما التى تكونت حولهما من خلال العمل . وحالة العاملة التى كانت تشعر بالضيق الشديد من أمها لأنها تلح عليها فى أن تحدث رئيسها فى أمر ترقيتها ، إذ كانت تعلم مقدما أن هذه الترقية سوف تكلفها ترك جماعتها إلى جماعة أخرى فى قسم آخر من أقسام المصنع . وهناك عدة أمثلة للحقيقة نفسها من زاوية أخرى .

فقد لاحظ هوايتهد J.N. Whitehead أن التنوع فى الإنتاج داخل المصنع يعتمد على التفاعل الاجتماعى بين أعضاء الجماعة . فى حين أن التغيرات الجوية وتغير ساعات العمل يكون تأثيرها تافهاً نسبيًّا ؛ وقد انتهى إلى هذا الرأى بناء على ملاحظات أجراها على خمس عاملات فى أحد مصانع شيكاغو ، عُزلن عن زملائهن فى العمل لمدة خمس سنوات . وهو يقرر أن التغير فى الإنتاج يتناول الكم والكيف. وكان يقارن إنتاج كل عاملة بإنتاج الأخريات ؛ فلاحظ أنه حيثما تكاملت عاملتان بالمعنى الاجتماعى للكلمة سواء تكاملتا فى صداقة أم فى تقارب ما ، عندئذ يوجد ارتباط واضح بين التغيرات الطارئة على إنتاج كل منهما . ولا يعنى ذلك أن إنتاجهما يكون متساوياً أو قريباً من التساوى ، بل يعنى أن التغيرات فى منحنى الجهد المبذول فى العمل تكون مترابطة إلى حد بعيد . فإذا ما انقطعت العلاقة الاجتماعية بين أى عضوين أصبحت التغيرات مستقلا بعضها عن البعض. (E. Farmer 1939). ومن الملاحظات المماثلة ما يقرره يات Wyatt من أن الفصل بين العمال الداخلين فى علاقة تكامل اجتماعى يصحبه ازدياد الإنتاج لدى كل منهم . ولكن يصحبه فى الوقت نفسه ازدياد الشعور بالجوانب غير المريحة فى بيئة العامل . كذلك لاحظ هندرسون ومايو أن الجماعة تنزع إلى جعل أفرادها متقاربين فى مستوى الإنتاج ، كما لاحظ أن وجود عامل سريع فى الإنتاج مع عامل بطىء يترتب عليه إبطاء السريع وإسراع البطىء ، وهكذا يتحركان نحو مستوى واحد فى الإنتاج . (ibid) وبناء على هذه الملاحظات وما شابهها انتهى مايو إلى نتيجة بالغة الأهمية بالنسبة لبحوث علم النفس الصناعى ؛ إذ يقرر أن الاعتقاد بأن سلوك الفرد داخل المصنع يمكن التنبؤ به قبل إلحاق هذا الفرد بالعمل على أساس استخدام الاختبارات الدقيقة لمعرفة قدراته التكنيكية وغيرها اعتقاد خاطئ فالواقع أننا نستطيع أن نصل إلى نتائج أفضل من ذلك بكثير إذا نحن عنينا بفحص قدراته الاجتماعية وقدرته على التكيف عامة . ذلك أن ما يحدث فى الواقع هو أنه

بعد التحاق العامل بالمصنع نجد أن علاقته « بالفريق »[1] هى التى تحدد مدى استخدام هذا العامل لقدراته التكنيكية . وبمراعاة هذه الحقيقة واحترام واقعية الجماعات السيكولوجية التى يؤلفها العمال داخل المصانع انتهى إلى نتائج حاسمة من أبرزها أن نسبة العمال الذين كانوا يتركون المصنع إلى مصانع أخرى انخفضت من ٢٥٠ ٪ إلى ٥ ٪ تقريباً ، وزاد الإنتاج ولم يعد « الغياب» مشكلة مزعجة . (E. Mayo 1949, p. 99) . وقدأوضحنا فى بحث سابق أن حدوث « صدع » فى جماعة النحن بين أحد أعضائها والآخرين ينجم عنه أحياناً نتائج بالغة الأثر فى سلوك هذا العضو . (م . سويف ١٩٥١) .

وإلى جانب ما لهذه الجماعات السيكولوجية من تأثير عميق فى سلوك الفرد ، كذلك نجد لها تأثيراً عميقاً فى كيان المجتمع . وقد ذكرنا أنها وسائطه فى تقطير ما يكفى لتطبيع الفرد من قيم وعادات وتقاليد ، فهى بذلك عامل هام فى استقرار المجتمع وضم أعضائه . إلا أنها بالإضافة إلى ذلك عامل هام فى تغيير نظام المجتمع . وتواريخ الثورات والانقلابات تشير إلى هذه الحقيقة الهامة . فجميع الثورات والانقلابات — مع التسليم بأن الكثير منها وليد حاجات عامة منتشرة لدى معظم أبناء المجتمع — بدأت تتلمس طريقها إلى الظهور والتنفيذ من خلال هذه الجماعات السيكولوجية الضيقة الحدود . وكما كشفت البحوث السوسيومترية عن أن الشائعات تخترق فى سيرها الطرق التى تمثل أقصر المسافات الاجتماعية أو بعبارة أخرى أوثق الروابط الاجتماعية ، فكذلك انتشار السخط والتدابير الثورية نرجح أنه يخترق هذه الطرق نفسها ، على الأقل فى بعض مراحله .

على أن الشعور بالنحن ليس وقفاً على هذه الجماعات السيكولوجية التى يتم فيها الاتصال والتأثير المتبادل بين الأعضاء بطريق مباشر . بل إنه ليتعداها أحياناً إلى جماعات أخرى أوسع نطاقا ، والاتصال والتأثير المتبادل بين أعضائها

---

(١) team

لا يتم بطريق مباشر . من هذا الطراز الجماعات التى أطلق عليها شريف وكانترل M. Sherif & H. Cantril اسم «الجماعات المراجع»[١] . ونحن نشاهد لذلك عدة أمثلة . منها مثال الطالب غير الرياضى الذى يتحمس لكون مدرسته تتغلب على مدرسة أخرى فى إحدى المباريات ، فيعنى بالدفاع عن اسمها وسمعتها ، وربما تورط فى بعض المشاحنات لهذا السبب . ومنها مثال العالم الذى يغضب ويأسى لكون عالم آخر — ربما لم يره فى حياته قط — قد وقع عليه الاضطهاد . ومنها كذلك مثال المواطن الذى يتحمس للقتال دفاعاً عن وطنه فى وجه معتد لم ينل باعتدائه أحداً من أقربائه بل بضع عائلات تقيم قرب حدود الوطن . عندئذ يبدو الشعور « بالنحن » وهو يضم الآلاف والملايين ممن لم تقم بينهم أية صلة مباشرة فى الحياة. وفى مثل هذه المواقف يبدو أن حالة النحن كانت قائمة فعلا لكنها لم تكن فى المستوى الشعورى . ويمكن القول بوجود عتبة[٢] تعين متى ترتفع هذه الحالة إلى المستوى الشعورى ، وتختلف من فرد إلى آخر تبعاً لعوامل متعددة . على أننا سنوجه اهتمامنا إلى حالة النحن ، تلك الحالة الدينامية التى تظل أحياناً دون المستوى الشعورى وترتفع أحياناً إليه . ما هى العوامل التى تعمل على ظهورها ؟ والشروط المهيئة لذلك ؟ ثم ما هى العقبات التى تقوم فى سبيلها أو العوامل التى تعمل على اختلال التكامل ؟ ويعتبر التعبير اللفظى عن تحقق هذه الحالة أحد مظاهرها التى تتجلى إذا توفرت شروط معينة ، كما يحدث فى ظروف التعبئة العامة[٣] للمجتمع ، أو فى ظروف الحياة العادية لدى بعض الأفراد ذوى الاهتمامات الاجتماعية الواسعة الأفق . إلا أن عدم ظهور هذا التعبير اللفظى لا يعنى عدم تحقق حالة النحن . فثمة عدة مظاهر سلوكية أخرى يمكن الاستدلال بها على نحو ما سنوضح فيما بعد.

والخلاصة أن الجماعات التى تتيح لأعضائها تحقق حالة النحن عديدة

---

(١) referenae groups

(٢) threshold

(٣) mobilization

الأشكال ، تختلف فيما بينها من حيث كثير من الخصائص ، كالحجم ، ونمط العلاقات القائمة بين الأعضاء، ومدى اختلاف المسافات الاجتماعية بينهم . . . . الخ ، لكنها تتفق من حيث القوانين الدينامية الأساسية التى تنتظمها . وهذه القوانين هى التى سنحاول الكشف عنها فى الفصول القادمة .

الفصل الثالث

عوامل التكامل الاجتماعى

الاشتراك – تقسيم العمل – التواصل – وحدة الهدف

إذا نظرنا فى الحياة الاجتماعية بنظرة فينوتيبية[١] – على حد تعبير لڤين K. Lewin – وجدنا أن بعض جوانب الحياة الاجتماعية تتخذ دور العوامل الرئيسية للتكامل ، وتتغير من مجتمع إلى آخر أو من مستوى ارتقائى فى حياة المجتمع إلى مستوى آخر . مثال ذلك ما نلاحظه إذا قارنا بين مجتمع إقطاعى ومجتمع صناعى حديث . ففى المجتمع الإقطاعى يبدو عامل القرابة[٢] وكأنه العامل الرئيسى فى إقامة الشعور بالتكامل مع الآخرين فى وحدة اجتماعية وثيقة . أما فى المجتمع الصناعى الحديث فيبدو أن العضوية الطبقية[٣] تحتل هذه المكانة .

إلا أن النظرة الجينوتيبية[٤] التى تعنى بالكشف عن القوانين الأساسية للتفاعل تستطيع أن تتبين وراء هذه الظواهر المتغيرة مبادىء دينامية ثابتة ، يمكن تلخيصها فيما يلى :

(ا) « الاشتراك » ، فى طقوس ، أو فى عادات وتقاليد . أو فى ذكريات . الخ .

(ب) تقسيم العمل ، والتنظيم .

(حـ) التواصل[٥] .

(د) الشعور بهدف موحد ، وقبوله .

وقد أجريت عدة دراسات توضح آثار بعض هذه العوامل ومدى مساهمتها

---

(١) phenotypical (٢) kinship (٣) class-membership

(٤) genotypical (٥) communication

وكيفية حدوث هذه المساهمة فى تحقيق عملية التكامل الاجتماعى . وقد قام بمعظم هذه الدراسات علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا الاجتماعية والأركيولوجيا . أما علماء النفس فقد بدأوا فى السنوات الأخيرة يهتمون بهذا الميدان ، ويرجع معظم الفضل فى ذلك لكورت لفين ، الذى استطاع ببحوثه المنهجية وبألمعيته فى ابتكار الطرق الملائمة لأداء التجارب بمعناها المعملى الدقيق أن يذلل الكثير من العقبات التى كانت تعترض سبيل الدراسة التجريبية لديناميات الجماعة . وقد أجرى رونالد ليبيت Lippitt ورالف هوايت R. White وهما من زملاء لفين والمتتلمذين عليه — تجربة نموذجية فى هذا الصدد تكشف عن أثر هذه العوامل جميعاً وعوامل أخرى ثانوية . وهذه التجربة هى المعروفة باسم « تجربة المناخ الاجتماعى لجماعات الأطفال »(R. Lippitt & R. White 1943). والهدف الرئيسى للتجربة هو الكشف عن أثر نمط التنظيم فى الجماعة — وهو ما أشار إليه الباحثان باسم « المناخ الاجتماعى للجماعات » — فى روحها المعنوية[1] التى تتجلى فى درجة تماسك أعضائها وولائهم للجماعة ولأهدافها . أما الطريقة التى اتبعها الباحثان فى أداء هذه التجربة فتتلخص فى تكوين عدة جماعات من الأطفال — تزيد أعمارهم عن الثامنة — مع مراعاة التشابه بين هذه الجماعات من حيث الظروف الاجتماعية الاقتصادية لأعضائها ومستويات ذكائهم ونمط العلاقات بينهم . وبذلك تم تثبيت المتغيرات التى قد تتدخل فى تحديد النتيجة . ثم نظم الباحثان علاقات الأعضاء داخل كل جماعة بحيث تمثل نمطاً معيناً . وتكونت نتيجة لذلك ثلاثة أنماط للتنظيم الاجتماعى : النمط الديمقراطى ، والنمط التسلطى * ، والنمط الفوضوى . وفى ظل هذه العلاقات أتيحت للجماعات فرصة القيام بنشاط عملى ، وجعل عدد من الملاحظين المدربين يسجل مختلف التغيرات التى كانت تنتاب أهم جوانب

---

(١) morale

* وقد كشفت التجربة عن أن بعض الجماعات ذات التنظيم التسلطى يغلب عليها الاستجابة العدوانية ، فى حين أن البعض الآخر يغلب عليها الاستجابة الخضوعية .

السلوك لدى الأعضاء .

والنتيجة الرئيسية لهذه التجربة أن الروح المعنوية ، أو التماسك التلقائى ، تتحقق بأعلى درجاتها فى الجماعة الديمقراطية . فمظاهر الصداقة تبدو فى الجماعة الديمقراطية بما يعادل ١ , ٢٦ ٪ من مظاهر السلوك فى حين أنها لا تتعدى ٧ , ٢١ ٪ فى الجماعة التسلطية (التى كان يغلب على سلوك أعضائها الأرجاع العدوانية) . و ٢٠,٦ ٪ فى الجماعة الفوضوية ، و ١٧,١ ٪ فى الجماعة التسلطية (التى كان يغلب على أعضائها الأرجاع الخضوعية) . واستخدام ضمير « نحن » يفوق استخدام ضمير « أنا » فى الجماعات الديمقراطية ٣٩ مرة ، فى حين أنه فى الجماعة الفوضوية يتفوق ٣٨ مرة . وفى الجماعة التسلطية العدوانية ٣٦ مرة وفى الجماعة التسلطية الخضوعية ٢٩ مرة . وفيما يتعلق بالعمل معاً فى سبيل أهداف مشتركة ، كانت النسبة المئوية فى الجماعة الديمقراطية ٥٠ ، وفى الجماعة الفوضوية ٣٣ ، وفى الجماعة التسلطية العدوانية ٥٢ ، وفى الجماعة التسلطية الخضوعية ٧٤ . وهذا الارتفاع الملحوظ فى الجماعات التسلطية يخفى وراءه حقيقة هامة هى أن العمل فى هذه الجماعة كان متوقفاً دائماً على حضور الرئيس بحيث ينقطع بمجرد غيابه .

وبتحليل ديناميات الجماعة الديمقراطية يتضح لنا أثر عوامل التكامل الرئيسية التى أسلفنا ذكرها ، تلك العوامل التى لا يتاح لها العمل مجتمعة فى الجماعات الأخرى . ذلك أن الجماعة الديمقراطية كان رئيسها يتعاون مع أعضائها على وضع خطط العمل مستقبلا ، ويشجعهم على إظهار رغباتهم ويحدد معهم أهداف الجماعة . (فى الجماعة الديمقراطية تولى الرئيس استثارة الأعضاء وتشجيعهم على تحديد الهدف ٦٠ مرة ، أما فى الجماعة الفوضوية فقد أدى ذلك ٣٠ مرة ، وفى التسلطية ٧ مرات) . فكانت النتيجة أن أعضاء الجماعة كانوا يشعرون بأن لهم هدفاً واضحاً ، وكانوا يقبلون هذا الهدف لأنهم ساهموا فى تحديده مقدماً . وكان تحديدهم لخطط العمل مستقبلا عنصراً مهما فى تنظيم خطواتهم

وتعاونهم فى سبيل هذه الخطوات . وكانوا بين الحين والآخر يعبرون عن سرورهم للنجاح الذى يحرزونه ويتبادلون المديح ، كما كانوا يتبادلون الأحاديث للتعبير عن مشاعر أخرى .

فإذا قارنا بين الجماعة الديمقراطية والجماعة التسلطية فالفروق واضحة . ومن أهمها أن الرئيس كان ينفرد بتحديد الهدف وخطة العمل نحوه دون أن يسمح للأعضاء بالمشاركة فى ذلك ، وكان ينفرد بتوزيع أدوارهم فى العمل عليهم . فكان تقسيم العمل قائماً وغير قائم ، كان قائماً فى ذهن الرئيس ، لكنه لم يكن قائماً فى أذهان الأعضاء ، ومن ثم فلم يكونوا يشعرون بوحدة المشروع الذى يضمهم وبالاعتماد المتبادل فيما بينهم ، أى أن وحدة المشروع وتقسيم العمل لم يكونا قائمين فى واقعهم السيكولوجى. وبالتالى فقد اضطر الرئيس أن يصدر ٢٥٦ أمراً فى ستة اجتماعات ، بينما أصدر الرئيس الديمقراطى ١١ أمراً فقط فى المدة نفسها . أما فيما يتعلق بالشعور بهدف موحد وقبول هذا الهدف فلم يكن قائماً أساساً . ذلك أن الهدف لم يكن من صنعهم بل كان من صنع الرئيس منفرداً ، وكان يفرض عليهم السعى نحوه . ولم يقتصر الأمر على عدم شعورهم بالهدف بل كانت تصدر منهم بين الحين والحين تعبيرات عدائية نحوه ونحو الرئيس . والنتيجة النهائية أن الجماعة التسلطية لم تحقق درجة من التماسك التلقائى تماثل الدرجة التى وصلت إليها الجماعة الديمقراطية . ومن أوضح الأدلة على ذلك — كما أنه من عوامل تخفيض درجة التماسك — أن الأطفال فى الجماعة التسلطية أجروا فيما بينهم ١٢٦ وحدة حديث فى الاجتماعات الست . بينما أجروا فى الجماعة الديمقراطية ٢٢٠ وحدة حديث .

على أن الجماعة الفوضوية لم تحقق هى الأخرى درجة التكامل التى حققتها الجماعة الديمقراطية ، لأسباب مماثلة . فلم يكن ثمة هدف للجماعة يُجمع عليه الأعضاء ، ولم تكن هناك خطة للعمل ، مع ما يترتب عليها من تقسيم للعمل بين الأعضاء وتنظيم علاقاتهم تنظيما مستقرًّا تبعاً لأدوار يضطلعون بها فى المشروع .

هذه هى النتائج الرئيسية للتجربة . وهى تلقى ضوءاً لا بأس به على أهمية

عوامل التكامل الاجتماعى التى ذكرناها . وقد نبه الباحثان على ضرورة الحذر عند محاولة تعميم هذه النتائج على المجتمعات ، وذكر بعض الباحثين أن من أهم الاعتراضات التى تقوم فى وجه هذا التعميم عدم اكتمال مقومات الحياة الاجتماعية — وخاصة النشاط الاقتصادى — داخل هذه الجماعات . إلا أن هذه الاعتراضات وأمثالها لا تمنع من الإفادة الجزئية من مثل هذه التجربة ، على أساس أنها تمكننا من وضع الفروض لتفسير ديناميات التكامل فى المجتمع ، ثم امتحان مدى صدق هذه الفروض وانطباقها بالرجوع إلى نتائج البحوث الأنثروبولوجية والتاريخية والاجتماعية ، وجميع المصادر التى يمكن الإفادة منها ، عملا بتوجيهات جاردنر مورفى . (1937, p. 24)

وهنا نستطيع أن نستعين بمبدأ منهجى هام لجأ إليه كثير من الباحثين فى عدة ميادين للبحث العلمى ، وأوضح لڤين أننا يلزمنا الاستناد إليه فى بحوثنا فى ديناميات الجماعة ، إذا أردنا لهذه البحوث أن تحرز من التقدم ما أحرزته البحوث فى ميادين العلم الأخرى . يقول لڤين : هناك نقطة هامة يجب عدم إغفالها لأنها تنطوى على آمال عريضة فى مستقبل بحوثنا ، فمع أن للجماعات المختلفة الأحجام مشكلاتها الخاصة فإن هناك خصائص دينامية معينة تعتمد على الخصائص البنائية للجماعة أكثر مما تعتمد على الحجم المطلق . ولذلك نستطيع أن نبحث خصائص الجماعات الكبرى فى نماذج صغيرة . ويضرب مثلا لذلك ، أن « الروح المعنوية » للجماعة أيًّا كان حجمها تكون أقوى إذا كان فعلها قائماً على تصميمها الخاص وعلى « قبولها » لوضعها (K. Lewin 1943) .

يتلخص هذا المبدأ إذاً فى صنع نماذج مصغرة ومبسطة لأحداث الواقع . والهدف من التصغير والتبسيط هو جعل متغيرات الموقف فى متناول يد الباحث وملاحظته ، يُجرى فى أوضاعها وعلاقتها التغيير والتبديل ويسجل الملاحظات الدقيقة عن نتائجه ، وبذلك يتاح له أن يستخلص قوانين التفاعل . والمشكلة الجوهرية فى صنع النماذج هى مدى تمثيلها لمقابلاتها فى الواقع . ذلك أن التصغير

والتبسيط إنما يكون بحذف بعض جوانب المواقف والإبقاء على جوانب أخرى. فعلى أى أساس يتم هذا الانتخاب ؟ المسألة هنا مسألة مغامرة علمية إلى حد كبير . فالباحث يعتمد اعتماداً كبيراً على نوع من « البصيرة النفاذة » ، ينتخب بها ما يعتبره جوهرياً فيبقى عليه فى النموذج ويحذف ما يعتبره ثانوياً . وقد تقوم أمامه عقبات تكنيكية تمنعه من أن يوفر فى النموذج بعض ما يعتبره جوهرياً وأمام هذه العقبات يضطر إلى أن يتنازل عنه — ولو تنازلاً مؤقتاً — . وهنا يتضخم عنصر المغامرة فى عمله .

على أن المسألة ليست مغامرة خالصة . فهذه « البصيرة النفاذة » يكوّنها الباحث من خلال ثقافته العلمية التى تمثل — بدرجات متفاوتة — خلاصة بحوث العلماء الآخرين وخبراتهم النظرية والتكنيكية . وبقدر ضخامة ثقافته هذه — مع قسط من الذكاء لابد منه — ، وبقدر ضخامة التراث والخبرات التى خلفها العلماء الآخرون ، وبقدر رسوخ هذه الخبرات بحيث تمثل قسطاً ثابتاً منظما من المعلومات وتقاليد التجريب ، بقدر توفر ذلك يقل عنصر المغامرة فى عمل الباحث . ولنا أن نقارن بين باحث فى الفيزيقا أو الكيمياء الطبيعية وباحث فى علم النفس الاجتماعى ، وسيتضح لنا حرج مركز الأخير . ومن هنا تبرز الأهمية البالغة للبحوث التجريبية الحديثة فى ديناميات الجماعة على قلتها ؛ فهى تمثل المحاولات الأولى لتوطيد دعائم البحث فى هذا الميدان ، والكشف عن طرق التجريب فيه ووضع تقاليده . ومع التسليم بأن عنصر المغامرة متضخم فى هذه الحال ، إلا أن هذا هو الطريق الذى اجتازته العلوم التى تمثل أكثر جبهات المعرفة العلمية تقدما . والتجربة فى كل البحوث العلمية ليست سوى تنفيذ لتصميم تصورى ، لانسخة من الواقع . وباطراد البحث وتكاتف الجهود يقترب مجموع التجارب فى العلم من تمثيل الواقع شيئاً فشيئا .

لهذه الاعتبارات جميعاً نبيح لأنفسنا الإفادة من تجربة « المناخ الاجتماعى » وما إليها من تجارب « القرار الجماعى » و « التحبيذ » « وأثر التنظيم » . ... الخ

فى وضع الفروض المفسِّرة لعملية التكامل الاجتماعى ، أو فى تأييد بعض الفروض التى نتوسمها بالاستناد إلى مراجع أخرى . يشجعنا على ذلك قول لفين : يجب ألاَّ تفتَّ فى عضدنا تلك الصعاب التى تعترض سبيلنا . والرأى عندى أن علماء النفس الاجتماعيين لهم الحق كل الحق فى أن يثقوا بأنفسهم ويفخروا — إلى حد ما — بما تم فى السنوات الأخيرة . فمن منا كان يجرؤ أن يتنبأ منذ بضع سنوات بأننا سوف نستطيع ذات يوم أن نقيس الأجواء الاجتماعية ، ونقيس الزعماء وندربهم ، وندرس توترات الجماعة ، وعمليات التصميم الجماعية كما هى الحال الآن (K Lewin 1943) .

وظيفة « الاشتراك » :

يعتبر الاشتراك « وظيفة » هامة فى المجتمع تساهم فى تحقيق تكامله واستمرار هذا التكامل. وقد كان مكدوجل W. McDougall يقول إن شرط التئام أى جمع من الناس ليكوّن جماعة بالمعنى السيكولوجى الدقيق هو وجود شىء مشترك بين أفراد الجماعة لما يترتب على هذا الاشتراك من تجانس نفسى يمكن الأفراد من سرعة التفاهم وزيادة التقارب. (S. Freud 1940, p. 26) .

ويقول كاتس وشانك D. Katz & R.L. Shanck إن امتلاك مجموعة من الناس لعدة عادات وممتلكات يمكنهم من أن يتصوروا أنفسهم جماعة ، وينشط التقمص تلقائيًّا لدى من يتكلمون نفس اللهجة أو يلبسون نفس النوع من الملابس أو يشتغلون بنفس النوع من الآلات . فمالك البيت الذى يدفع الضرائب ويقود سيارته ويقبل الأوضاع الفكرية والخلقية التقليدية ما أيسر ما يوحد بين نفسه وبين دافعى الضرائب وملاك العقارات . ولما كانت الطرق المشتركة والممتلكات المشتركة تساهم فى تكوين الجماعة فإن البعض يستخدمونها كوسيلة لزيادة ربط الجماعة . وكلنا نعرف التحيات وكلمات السر والشارات بل والزى الموحد فهى جميعاً تستخدم كوسائل لتوطيد دعائم النوادى والأحزاب والحركات الاجتماعية .(D. Katz & R.L. Shanck 1947, p. 328)

والشيء المهم فى هذا الاشتراك أنه يؤدى — بطرق مباشرة وغير مباشرة — غالباً إلى ظهور اهتمامات[١] مشتركة . فإذا لم يقم فى المجال السلوكى ما يحول دون ظهور هذه الاهتمامات وتعمقها فى المستويات العميقة للشخصية فستقوم وظيفة « الاشتراك » بمساهمة فعالة فى تحقيق تكامل الجماعة . وهذه الحقيقة على جانب كبير من الأهمية . فالوظيفة هنا تتم فى كل دينامى ، متفاعلة مع عدة وظائف أخرى ، والنتيجة دائماً محصّلة للتفاعل . من هنا يلزمنا الحذر من المبالغة فى أهميتها كأنها ذات قيمة مطلقة . كما يلزمنا التنبه إلى أن «الاشتراك» وسائر الوظائف التى تحقق التكامل الاجتماعى تختلف فى تأثيرها من فرد لآخر تبعاً لعدة عوامل .

وتعتمد وظيفة « الاشتراك » فى العادات أو الممتلكات أو بعض خبرات الحياة فى نفوذها فى أعماق الشخصية وتوليد حاجات واهتمامات معينة ، تعتمد على المستويات تحت الشعورية[٢] غالباً . ومن هنا ينجح « الاشتراك » فى الشارات والملابس والحركات الرمزية وبعض الأسرار ، ينجح فى أداء مهمته فى التجميع والتوحيد لدى البدائيين لانخفاض مستوى ارتقاء الشخصية بوجه عام لديهم ، كما ينجح لدى فئات معينة من أبناء المجتمعات المتمدينة ممن يتميزون بانخفاض مستوى ارتقاء الشخصية . أما نجاحه بين فئات الشخصيات الناضجة فرهن بتوفر عوامل متعددة تساهم جميعها فى توليد الاهتمامات المشتركة .

فالاهتمامات المشتركة إذاً هى الحقيقة السيكولوجية الهامة وراء وظيفة «الاشتراك». وهذا ما أشار إليه فرويد S. Freud بقوله إن ظهور اهتمامات مشتركة بين أعضاء الجماعة يولد بينهم شعوراً بالوحدة والتضامن . أما ظهور الاهتمامات المتعارضة فهو من أهم مصادر الصراع والتمزق . (S. Freud 1939,pp. 85-87) ويلى ذلك فى الأهمية ما يترتب على « الاشتراك » من تشابه فى أنماط العمليات النفسية لدى أعضاء الجماعة ، مما ييسر سبل التفاهم والتقارب . ولنا أن نتصور حالة شخصين بينهما كثير من التشابه فى الذكريات والآمال ومعايير القيم ، مثل هذين الشخصين يسهل أن تتوثق بينهما عرى الصداقة ، بعكس الحال لدى شخصين مختلفين من هذه الوجوه . وفى ذلك يقول فرويد ، كل ما يحقق التشابه بين الناس يؤدى إلى

---

(١) interests (٢) subconscious

ظهور الشعور الجماعى بينهم وتقويته ، إذ ييسر حدوث التقمص (ibid. p. 95) بعبارة أخرى ، إن بروز الشعور بحدود الأنا يعتمد أساساً على الشعور بالفوارق . وقد أوضحنا فى فصول سابقة كيف أن الطفل فى أزمة السنة الثالثة يتبين هذه الفوارق فيعمل على زيادة شحذ شعوره بها عن طريق المعارضة الملحة والعناد المستمر ومن خلال ذلك ينمى شعوره بذاته . ومعنى ذلك أنه كلما قل الشعور بالفوارق ازداد اتحادنا بالآخرين عمقاً وتوثقاً . وهذا من الأسباب المهمة فى زيادة توثق الرابطة بين البدائى وقبيلته .

إن الصداقات الوطيدة والعلاقات الزوجية التى يطول العهد باستقرارها تزداد قدرة على الثبات والاستقرار لما يلقاه أعضاؤها من خبرات عديدة متشابهة فى الحياة تزيد من تجانس أنماطهم النفسية ، وبالتالى تعمل على تقاربهم . والصداقات والزيجات التى تنطوى على درجة من التماثل يمكنها غالباً أن تستقر وتتوطد أكثر من سواها . وقد أوضحنا فى الدراسة السوسيومترية لصداقات الراشدين التى قدمناها فى الباب السابق كيف أن كثيراً من هذه الصداقات تنطوى على تماثل فى درجة الصلابة الاجتماعية (وهى منخفضة غالباً لدى الطرفين) ، كما تنطوى على تماثل فى قوة المركز الاجتماعى للطرفين . وربما كان أحد الأسباب المساهمة فى ارتفاع نسبة الطلاق فى هذه الأيام ازدياد اتساع الهوة الفاصلة بين نمط البناء النفسى لدى الرجل والمرأة (٥) . بل إن هذا السبب هو أحد الأسباب المساهمة بطريق مباشر فى تفكك الكثير من المجتمعات الحديثة . فانقسام المجتمع إلى فئات متباعدة ، وازدياد صلابة الحواجز القائمة بينها واختلاف خبرات الحياة التى يلقاها أبناء كل فئة اختلافاً كبيراً عن الخبرات التى يلقاها أبناء الفئات الأخرى ، قد أدى إلى درجة من التباين فى الأبنية النفسية بين أبناء هذه الفئات يصل إلى درجة التعارض أحياناً ، حتى إن الباحث فى السلوك الاجتماعى لم يعد يستطيع أن يغفل هذا التباين بين أبناء المدينة وأبناء الريف مثلا ، أو بين أبناء الطبقات الاجتماعية الاقتصادية المختلفة .

ولكن ما هو مضمون نمط البناء النفسى ؟ ماذا نعنى بهذا الاصطلاح

---

(٥) يضاف إلى ذلك ارتفاع درجة التصلب الاجتماعية بوجه عام ، نتيجة لازدياد التوترات .

بالضبط؟ إن الشخصية بناء وليست مجرد مجموعة من الخبرات والعادات والذكريات والآمال . الشخصية بناء منظم محوره الأنا ، ومن حيث ارتباط أجزاء هذا البناء بالأنا تعتبر هذه الأجزاء قيما[١] . ويقال عن الروابط التى تربط الأنا إلى هذه القيم إنها اتجاهات[٢] أو اهتمامات أو حاجات[٣] . ومواقف الحياة إذ تقدم لنا المدركات والخبرات إنما تقدم لنا قيما لكل منها وزن خاص وليست متعادلة ولا فاقدة الوزن ، وتسعى كل منها لأن تحتل مركزاً فى البناء المنظم ، ولا تقوم هكذا فى فراغ أو فى مجرد تجاور مع قيم أخرى . فمواقف الحياة إذاً تصوغ بناءنا النفسى إذ تقدم هذه المدركات والخبرات ، وتعيد صياغته من لحظة لأخرى . (G. Murphy & others 1937, p. 218). ومن ثم يمكن القول بأن نمط البناء النفسى ومضمونه هما نتاج تاريخى لمواقف الحياة الاجتماعية التى يجتازها الشخص . ويمكننا بذلك أن نفهم كيف أن مواقف الحياة المتشابهة تنتج أنماطاً نفسية متشابهة .

ويتجلى أثر هذه الحقيقة ونتائجها بأوضح ما يكون فى المجتمعات البدائية . وهذا التشابه يتفق مع ما تقرره جميع الدراسات للمجتمع البدائى من ضآلة مدى التغاير بداخله وضآلة نطاق الفوارق الفردية . ثم ما تقرره تلك الدراسات من شدة التماسك بين أعضائه بدرجة تفوق كثيراً ما نشاهده فى بعض المجتمعات الحديثة . والاشتراك حقيقة نشهدها فى معظم جوانب الحياة الاجتماعية فى المجتمع البدائى .

يقول تومسون G. Thomson : حرص الدوريون الغزاة المقيمون فى اسبرطة على أن يحكموا البلد رغم أنهم كانوا أقلية . ولكى لا تغتالهم الأكثرية من أهل البلاد نظموا أنفسهم على أن يكونوا على استعداد دائم . ومن ناحية أخرى نظموا صفوفهم الداخلية ، فمنعوا تراكم الامتيازات الخاصة فى يد أفراد حتى لا يؤدى ذلك إلى تمزق فى روابطهم القبلية . كما حرصوا على أدب المآدب الجماعية فيما بينهم ، تساهم فى إعدادها كل أسرة بجزء من غلة الأرض . وكذلك حرصوا فى

---

(١) values (٢) attitudes (٣) needs

سنعود إلى توضيح هذه الحقيقة فى موضع أخرى .

كريت على أدب هذه المآدب الجماعية ليتماسكوا فيما بينهم كحكام ضد الشعب المحكوم (G. Thomson 1950, p. 70) ويقول ونسبير A.D. Winspear إنه من النظم التى كانت سائدة فى كريت ضرورة انتماء أفراد الطبقة الحاكمة الدوريين إلى نواد . ولم يكن ثمة فرد من هذه الطبقة لا ينتمى إلى ناد ، وهذا أيضاً ليتحقق التماسك بين أفراد هذه الطبقة . كذلك كان الفيثاغوريون يعملون بنظام المآدب الجماعية التى تجمع بينهم . (A.D. Winspear 1940, p. 251-257)

ويتحدث برستيانى J.G. Peristiany عن طقوس تلقين الأسرار[1] عند قبائل الكبسجيس فيقول إن ما يجعل لتلك الطقوس هذه الأهمية الكبرى التى ترتبط بها إنما هو الختان والطقوس السرية التى يتلقاها جمع من الفتيان سويا ، مما يجعلهم يشعرون بأنهم يشاركون فى خبرة واحدة ومعرفة بأشياء لا يدركها الغرباء ، وبذلك ينهض لديهم الشعور بالوحدة والتمسك القبلى (J.G. Peristiany 1939, p. 27) . ويتحدث عن الأپندا فى موضع آخر ، وهى إحدى منظمات الكبسجيس فيقول : فى خلال السنوات التى تسبق زواج الرجل وتليه ، أو بعبارة أخرى عندما يكتسب الفتى حق الرجولة (بتلقين الأسرار والختان ويباح له الزواج) يحتم عليه أن يرقص ويصطاد وينام فى السنجروينا مع أفراد مجموعة عمره (الإپندا) . وهذا « الاشتراك » فى المجالات المختلفة للحياة يقوى أواصر الصلة بين أفراد الأپندا . ومن الحكم المأثورة لدى الكبسجيس قولهم ، إذا أردت أن تقوى الجيش فإن خير وسيلة إلى ذلك أن تضع إلى جانب كل محارب منافسه فى حب فتاته ، أو الزملاء فى السنجروينا . « فالمحب لن يحط من قدر نفسه أمام منافسه ، والأعضاء فى السنجروينا الواحدة يصمدون لحماية بعضهم بعضا حتى الموت » (ibid., p. 41)

ويقول برتسيلوسكى J. Przyluski : من المظاهر المميزة لديانة قبائل الأرونتا فى استراليا قيام الحفلات الموسمية وبعض الأساطير . وتختلف هذه الحفلات من قبيلة إلى أخرى . ومن المسلم به أن كل شخص فى القبيلة يستطيع

---

(١) initiation

أن يشترك فيها . ويفصّل الباحث القول فى بعض هذه الحفلات فيقول إن أبناء القبيلة يرتدون زيًّا متماثلا يجعلهم يشبهون طوطمهم[1] ، ويقومون ببعض الحركات المنتظمة التقليدية بقصد محاكاة الطوطم . ولكى يكون الحفل مجدياً ومؤديا لوظيفته يتحتم على أبناء القبيلة أن يشتركوا فى الأكل من طوطمهم (J. Przyluski 1940, p. 86) .

ويذكر سمنر W.G. Sumner عن قبائل أخرى ممن يمارسون أكل اللحم البشرى أن أعضاء القبيلة يشتركون جميعًا فى أكل لحم المجرم ، ويتخذ هذا الأكل شكل طقس . وتتمثل فى ذلك فكرة المسئولية الجمعية ؛ فإن القضاء على حياة زميل فى القبيلة ظل وقتاً طويلا عملا يحتاج إلى دافع قوى ويحتاج إلى سلطة . وكان العبريون عندما يحكمون على أحد المجرمين بالرجم يحتمون على أبناء الجماعة أن يشتركوا جميعاً فى القيام بهذه العملية ؛ فإنهم جميعاً ينبغى أن يشاركوا فى ذنب الدم (W.G. Sumner 1930) .

ويمكن القول بأن البدائيين يحرصون على « اشتراك » جميع أفراد القبيلة فى معظم جوانب نشاطهم الاجتماعى . كما أنهم يضاعفون هذا الاشتراك بالطقوس التى ينبغى إجراؤها بصورة جمعية قبل الإقدام على أداء معظم الأعمال . فإذا أضفنا إلى ذلك الاشتراك فى مجموعة من الأساطير حول أصل القبيلة وتطورها ، وأصول بعض الكائنات التى تظهر فى مجال حياة القبيلة ، والأساطير التى تمثل حكمة الحياة وعبرة الأيام ، وهى تمثل مجمل البناء الأيديولوجى لدى الأفراد (J.G. Peristiany 1939, p. 235) استطعنا أن نتصور مدى التجانس القائم بين أنماط الأبنية النفسية فى هذه المجتمعات ، وبالتالى أن ندرك سبباً هامًّا من أسباب شدة التماسك التلقائى داخلها .

على أننا إذا أردنا أن نستنتج من هذه الحقائق شيئاً يخص المجتمعات الحديثة فيلزمنا أن ننظر إلى هذه الوظيفة ، وظيفة « الاشتراك » ، بنظرة ارتقائية . فنمط الاشتراك كما كان قائماً فى المجتمعات البدائية تحدده عوامل متعددة ، كأحجام

(١) totem

تلك المجتمعات ، والمستويات التى بلغتها نُظمها ، ومستوى التقدم المادى التكنولوجى لديها . ولما كانت المجتمعات الحديثة تختلف اختلافاً كبيراً عن المجتمعات البدائية من هذه الوجوه ، فلابد أن تختلف عنها فى نمط « الاشتراك » أيضاً . لكن ذلك لا يعنى إمكان استغناء المجتمعات الحديثة عن ممارسة هذه الوظيفة .

ولنضرب لذلك بضعة أمثلة . كان أعضاء المجتمع البدائى يشتركون فى أداء طقوس معينة . والطقوس التى تضم المجتمع الحديث بأسره لم تنعدم ، لكنها تضاءلت إلى حد كبير ، لا سيما من حيث مظاهرها فى مجتمع المدينة . ومع ذلك فما يعوِّض هذا التضاؤل ظهور صور أخرى من النشاط تؤدى الوظيفة نفسها . من هذا القبيل الإنتاج الفنى . فالأعمال الفنية العظيمة — كما يدل على ذلك تاريخ الفنون والدراسات النقدية — إن هى إلا خبرات « ومواقف اجتماعية » منشورة على نطاق واسع بالطباعة أو الإذاعة أو السينما أو المسرح أو المعارض ، وكلما اتسع نطاق المتذوقين لها كان معنى ذلك تحقيق وظيفة « الاشتراك » على نطاق أوسع . والدوريات العلمية إذ تعمل على نشر أحدث نتائج البحث العلمى تقوم بمهمة الأسطورة فى المجتمع البدائى ؛ ذلك أنها تعمل على إيجاد قسط مشترك فى البناء الأيديولوجى لأعضاء الجماعة ، وكلما اتسع نطاق قرائها تحققت مهمتها على نطاق أوسع . وأهم من ذلك جميعاً أن يزداد التشابه بين خبرات الحياة الواقعية التى تواجه الأفراد دون أن يقضى على ثمرات الارتقاء .

تقسيم العمل الاجتماعى ، والتنظيم :

إذا كان « الاشتراك » هو الوظيفة المحققة للتكامل عن طريق تحقيق التشابه بين أعضاء المجتمع ، فتقسيم العمل الاجتماعى هو الوظيفة المحققة لهذا التكامل عن طريق التغاير والإفراد وإثارة الشعور بضرورة التواصل والتعاون . ومع ذلك فإن موضوع العمل بوجه عام لم يحظ بالعناية الكافية لدى الباحثين فى علم النفس

الاجتماعى . ويبدو هذا الإغفال واضحاً إذا قارنا بين البحوث السيكولوجية فى العمل والبحوث التى أجريت فى موضوعات الإدراك والحياة الوجدانية عامة . فالأخيرة تفوق الأولى كمًّا وكيفًا . وقد أوضحنا فى بحث سابق كيف أن هذا وليد أسباب اجتماعية معينة ، كما أنه نتيجة طبيعية لسير البحوث على خطة غير رشيدة. كما أوضحنا النتائج المترتبة على إغفال هذا الجانب الرئيسى من جوانب الحياة الاجتماعية ، وتتجمع كلها فى حقيقة هامة هى تأخر البحث فى ميدان علم النفس الاجتماعى تأخراً ملحوظا ، وتشتته وعدم تجمعه حول فرض عام منظم . وفى رأينا أن هذا الفرض العام المنظم لا يمكن الوصول إليه دون أن يحسب الباحثون حساب موضوع « العمل » وآثاره السيكولوجية فى أعضاء المجتمع (م . سويف أكتوبر ١٩٥١) وهذا بالضبط ما يشير إليه لڤين K. Lewin بقوله : على الرغم من أن البحوث العلمية فى العمل الجماعى[1] حديثة العهد فإننى لا أتردد فى التنبؤ بأن هذا الميدان سوف يكون فى القريب العاجل من أهم المجالات العملية والنظرية . (K. Lewin 1943) وقد أحصى مكدوجل W. McDougall ضمن الشروط الخمس التى لابد منها لتحقيق الوحدة الاجتماعية ورفعها إلى مستوى أرفع من مستوى حياة الجمع غير المنظم ، تنظيم الجماعة وتقسيم العمل (J.F. Brown 1936, p. 73) . وكان فرويد S. Freud يقول إن الملاحظة الدقيقة تدلنا على أن « الاشتراك فى عمل واحد » يقوى الروابط اللبيدية بين الزملاء ، بحيث يتجاوزون التقارب من أجل المنفعة العاجلة فحسب إلى ما هو أعمق منها . (S. Freud 1940, p. 57) . ويقول الكاتب الفرنسى روجيه جارودى R. Garaudy إن المجتمع فى جوهره تنظيم للعمل.

وبديهى أن هذه الإشارات من هؤلاء الباحثين ، وغيرهم من أمثال فرتهيمر M. Wertheimer (1938 b) ، ودوركهيم E. Durkheim (1926) ومالينوفسكى B. Malinowsky (1932, 1935) تحتم على الباحث فى ديناميات التكامل الاجتماعى أن يولى هذا الموضوع ما هو جدير به من العناية والاهتمام. إلاّ أن الباحث واقع تحت وطأة

---

(١) group work

ضرورة اجتماعية لا يستطيع أن يتجاهلها . تلك الضرورة هى أنه لابد أن يعتمد أولا على استقصاء بحوث من سبقوه فى ارتياد هذا الميدان للإفادة من خبراتهم المنهجية ونتائجهم . وبعد ذلك يستطيع أن يقدم مساهمته . (W.I.B.Beveridge 1948) وهذه المساهمة مشروطة إلى حد ما بمقدار هذه البحوث واتجاهها ومدى عمقها . فإذا كانت لا تزال ضئيلة — كما هى الحال فى موضوعنا — فستكون المساهمة كذلك ضئيلة . ومع ذلك فمن مجموع المساهمات الفردية الضئيلة يحرز العلم تقدمه العظيم .

يستهل دوركهيم كتابه « فى تقسيم العمل الاجتماعى » ، بقوله إن قانون تقسيم العمل يعم جميع أوجه النشاط الاقتصادى للمجتمع فى الصناعة والزراعة والتجارة . ويعتبره الاقتصاديون القانون الأعلى للمجتمعات البشرية والشرط الأول لتقدمها . على أنه لا يقتصر على الجانب الاقتصادى من حياة المجتمعات فحسب بل يمتد إلى سائر جوانب النشاط الاجتماعى ، كالوظائف السياسية والتشريعية والقضائية ، بل ويتعدى ذلك إلى ميدان النشاط الفنى والعلمى أيضاً (E. Durkheim 1926, p. 2) . ولما كان تقسيم العمل الاجتماعى يزداد تحققاً بارتقاء المجتمعات فقد رتب دوركهيم على ذلك تفرقة بين نمطين من التكامل ، يتحقق أحدهما فى المجتمعات البدائية وهو التكامل الميكانيكى[١] ويعتمد أساساً على غلبة التشابه بين أعضاء المجتمع ، نتيجة لانتشار عقائد وعواطف متشابهة بينهم . وفى مقابل ذلك يتحقق فى المجتمعات الحديثة نمط آخر من التكامل ، وهو التكامل العضوى[٢] ، الذى يتضمن تباين الأفراد ولا يتحقق إلا بقدر ما يكون لكل امرئ من شخصية متميزة . (ibid., p. 100) فتقسيم العمل إذاً قد نقل المجتمع من نمط من أنماط التكامل إلى نمط آخر . وفى هذا الرأى جانب من الصحة

---

(١) intégration mécanique

(٢) intégration organique

تشهد به معظم البحوث الاجتماعية والاقتصادية التى جاءت بعد بحث دوركهيم أو قبله . ذلك هو إبراز أهمية تقسيم العمل فى تشكيل العلاقات الاجتماعية ، وفى تغيير سيكولوجية الأعضاء . إلا أن هذا التصنيف لأنماط التكامل إلى نمط ميكانيكى وآخر عضوى يبدو الآن غير مقبول إذا قارنا بينه وبين المفاهيم الدينامية الحديثة ، فليس ثمة مجتمع مهما كان بدائيًا يسود فيه التشابه التام بين الأعضاء ، ولا مجتمع مهما كان حديثاً يسود فيه التباين التام بين الأعضاء . ومعنى ذلك أننا لن نجد النمط الميكانيكى الخالص من التكامل ، ولا النمط العضوى الخالص.

ولما كانت المفاهيم العلمية أدوات لتمثيل الواقع تمثيلا ذهنيًا منظمًا (H. Blumer 1940) فإنها تكون أكثر كفاءة لتأدية مهمتها إذا كانت أكثر مطابقة للواقع ، من حيث خصائصه الرئيسية . على أن دوركهيم لم ينفرد بهذه النظرة التصنيفية دون غيره من العلماء ، فقد كانت شائعة لدى الكثيرين فى القرن الماضى . ومن أمثالها تفرقة ليفى بريل L. Bruhl بين « عقلية بدائية مسابقة على المنطق »[1] « وعقلية متحضرة منطقية » ، وتفرقة برجسون H. Bergson بين « مجتمعات مغلقة » و « مجتمعات مفتوحة » ، و « أنا إجتماعية » و « أنا فردية » ، وتفرقة لوبون G. Le Bon بين « سيكولوجية جماعية » و « سيكولوجية فردية » ، وتفرقة مكدوجل بين « عقل » و « غريزة » ، وتفرقة فرويد بين « غريزة للموت » و « غريزة للحياة » . . . . الخ . على أن هذه النظرة التصنيفية بدأت تختفى شيئاً فشيئًا من البحوث الحديثة ، لتفسح مكانها للنظرة المجالية الارتقائية (K. Lewin 1935 'b) .

إن ما أشار إليه دوركهيم من تغير نمط التكامل الاجتماعى من ميكانيكى إلى عضوى ، هو ما يمكن أن نشير إليه من خلال مفاهيمنا الدينامية الحديثة بقولنا إن أعضاء المجتمع يزدادون شعوراً بعضويتهم فى المجتمع وبضرورة تعاونهم ، وهذا ناتج عن ازدياد التغاير الاجتماعى الذى ينعكس على الأفراد بازدياد شعورهم بذواتهم ، وهذا التغاير نفسه ناتج عن تقسيم العمل . والمشكلة التى تهمنا فى هذا

(١) prélogique

الصدد هى كيف يؤثر « تقسيم العمل » فى الأفراد المشتركين فى تنفيذ مشروع معين ، بحيث يحقق بينهم درجة معينة من التكامل الاجتماعى ؟

يلزمنا أولا أن نلقى بعض الضوء على سيكولوجية العمل . إن ما هو جوهرى فى العمل أنه نشاط مقصود ، يتضمن خطة وتدبيرا ، ويمضى بين الإنسان وأحد أجزاء البيئة ، لإحداث تغيير معين فى هذه البيئة . ويستعين الإنسان بآلة معينة — تتفاوت درجة تعقدها — لإتمام هذا النشاط . فعناصر موقف العمل إذاً هى :

١ — الخطة .

٢ — والنشاط المقصود .

٣ — والتفاعل من البيئة .

٤ — والتفاعل مع الآلة .

٥ — وانتظار النتيجة .

ومعنى ذلك أن الشخصية تدخل بجميع أجهزتها فى هذا النشاط ، فإذا أضفنا إلى ذلك القيمة الواقعية لهذا النشاط ، وهو مايتجلى فى شعور الفرد إزاءه بالمسئولية ؛ (وتلك هى النقطة الرئيسية فى التفرقة بين سيكولوجية العمل وسيكولوجية اللعب) أدركنا إلى أى مدى يكون الفرد مهيأ للتأثر فى بنائه النفسى بالجوانب المختلفة فى موقف العمل . إن الفرد فى موقف العمل يحاول أن يغير البيئة ، لكنه فى أثناء ذلك يغير نفسه أيضاً . فيكتسب مهارات جديدة ، ويتخلى عن عادات (حركية أو ذهنية) أثبتت الخبرة أنها عائقة أو مشتتة أو زائدة عن الحاجة. وإذا نجح فى الوصول إلى هدفه فإنه يمارس السرور والثقة بالذات وربما ارتفاع مستوى الطموح بحيث لا يلبث أن يفكر فى هدف جديد وعمل جديد لتحقيق هذا الهدف . بعكس الحال إذا فشل وتكررت خبرات فشله . وإن إيقاعه النفسى ومدى اتساع أفقه الذهنى ليتأثران إلى حد بعيد بنوع الخطط والتصميمات التى يضعها ، أهى بسيطة أم معقدة ، بعيدة المدى أم قصيرة الأجل . كما أنه فى

علاقته مع الآلة يدخل فى سلسلة من التفاعلات البعيدة الأثر . ويكفى أن نقارن مقارنة عابرة بين سيكولوجية العامل الزراعى والعامل الصناعى ، فسنقف حينئذ على اختلافات عميقة ؛ فالعامل الزراعى الذى يستخدم بضع آلات يدوية بدائية ، والذى يبذر البذور ثم ينتظر أياماً وأسابيع حتى تصبح البذور ثمارا بفعل قوى طبيعية غامضة لا يكاد يشهد أى جانب من فعلها أو يساهم فيه ، (وقد تطرأ تغيرات جوية عنيفة تتلف محصوله أو يظل الجو ملائماً فيأتى المحصول وفيرا) والذى يضطر أن يعتمد فى إنجاز بعض أعماله على كائنات بيولوجية تبدو هى الأخرى خارج نطاق إرادته أحياناً ، والذى يعمل غالباً متعاوناً مع أفراد أسرته لا مع الغرباء ، هذا العامل لا شك أنه يختلف اختلافاً عميقا عن العامل الصناعى الذى يتعامل مع آلة معقدة تلزمه أن يكون على درجة عالية من التنبه وسرعة الاستجابة ، والذى يتناول المادة الخام فيصنع السلعة منها بسرعة تفوق كثيراً سرعة ظهور الثمار من البذور ، كما أنه يشهد الكثير من المراحل التى تمر بها المادة الخام إذ تتحول إلى سلعة ، ولا يقف سلبيا إزاءها بل يساهم من حين لآخر فى دفعها من مرحلة إلى مرحلة ، أضف إلى ذلك أنه يعمل متعاونًا مع غرباء ليسوا من أفراد أسرته .

هذا الاختلاف المتعدد الجوانب بين موقف العامل الزراعى وموقف العامل الصناعى كل فى عمله ، وهو السبب فى الاختلاف العميق بين سيكولوجيتيهما . هو السبب فى أن العامل الزراعى بطىء الإيقاع ، يؤمن بالغيبيات أكثر مما يؤمن بقدرته ، ويقابل تغيرات البيئة بالتوجس ، ولا يبدى استعداداً كبيراً للتعاون على نطاق واسع . بعكس الحال مع العامل الصناعى الذى يغلب عليه سرعة الاستجابة ، والإيمان بقدرته والاعتزاز بها ، ويقابل التغيرات غير المنتظرة فى البيئة بأرجاع عدوانية غالبًا ، كما أنه يبدى استعدادًا للتعاون على نطاق واسع . وبوجه عام يختلف نمط البناء النفسى لدى العامل الصناعى عنه لدى العامل الزراعى اختلافًا عميقًا ، بسبب الاختلاف الكبير بين ديناميات موقف العمل الذى

يواجه كلا منهما . وتدل جميع الدلائل على أننا نستطيع أن نعقد مقارنات مماثلة بين عدة فئات أخرى من أبناء المجتمع على أساس اختلاف ديناميات مواقف العمل المواجه لأفراد كل فئة .

وقد أجريت عدة بحوث تجريبية فى هذا الصدد ، إلا أنها لا تزال ضئيلة جداً إذا ما قورنت ببحوث التوجيه المهنى التى تلقى التشجيع لما لها من فوائد عاجلة . ومع ذلك فالقليل من البحوث الذى أجرى فعلا ينبئ عن خصوبة هذا الميدان ، ويشير إلى النتائج العلمية الهامة التى سنحصل عليها ومدى ماستحدثه من تعميق فى معلوماتنا عن التفاعل بين الشخص وبيئته الاجتماعية . فقد أشار چون كوهن J. Cohen إلى أهمية البحوث فى الصلة بين نظام الأجور (كل يوم أو كل أسبوع أو كل شهر) وبين مدى اتساع الأفق الزمنى للشخص وامتدا دتدبيره لفترة معينة فى الماضى والمستقبل. فالراجح أن نمط عادات العمال واتجاهاتهم يتغير بتغير نظام الأجر . مثال ذلك أن العامل الذى يتناول أجره كل شهر يكون أقدر على الاهتمام بشئون المستقبل أكثر من العامل الذى يتناول أجره كل يوم . ذلك أنه يعتاد وضع الخطط الواسعة النطاق لتدبير أمور فترة من المستقبل بعيدة المدى نسبياً . كذلك أشار كوهن إلى خصوبة البحث فى الفرق بين سيكولوجية العامل المتعطل والعامل المشتغل من حيث ممارسة كل منهما للشعور بالزمن . وأورد رأى بارتلت F.C. Bartlett فى هذا الصـــدد ، إذ يرى أنه بالنسبة للعامل المتعطل يفقد الزمن خاصيته كمرجع يتألف من عدة نقاط للتثبيت ، ولذلك تتضاءل لديه القدرة على المحافظة على المواعيد حتى بالنسبة لتناول الطعام . ويستشهد على ذلك ببضع ملاحظات أجريت على ١٠٠ عامل متعطل ، فقد امتنع ٨٨ منهم عن حمل ساعاتهم ، وتضاءل حرصهم على مطالعة الصحف بشكل منتظم ، وكادوا أن يفقدوا الميل إلى وضع أى برنامج أو خطة (J. Cohen 1949) . وفى بحث بعنوان « نحو علم نفس اجتماعى مهنى » أجرى وليم فورم W.H. Form عدة دراسات

تجريبية بهدف الكشف عن اختلاف « نظام القيم »[١] عند فئتين مختلفتين من العمال ، هما فئة «العمال اليدويين » و «العمال غير اليدويين » (كالموظفين الكتابيين وغيرهم) . وقد دلت هذه الدراسات على وجود اختلافات كبيرة بين الفئتين . وإليك بعض النتائج :

(ا) فى اختبار « ترتيب المهن » ، وضع الموظفون الكتابيون مهنة المدرس فى مرتبة أعلى من تلك التى وضعها فيها العمال اليدويون ، كما وضع العمال اليدويون « العامل الصناعى » فى مرتبة أعلى من تلك التى وضعه فيها العمال غير اليدويين .

(ملحوظة : تحتوى قائمة المهن التى استخدمت فى هذه الدراسة على المهن الآتية : طبيب — موظف حكومى كبير — مالك لمصنع كبير — عالم طبيعى — عضو فى البرلمان — مدرس — رجل أعمال صغير — موظف حكومى صغير — طابع حاذق — كاتب — مهنة الشخص الذى يقدم إليه الاستخبار — عامل صناعى — لاعب كرة).

(ب) عندما سئل أفراد الفئتين عن المهن التى يطمحون إلى توجيه أبنائهم نحوها ، لوحظ أن العمال غير اليدويين كانوا يميلون (أكثر من العمال اليدويين) إلى منح أبنائهم حرية الاختيار .

فقد قرر العمال اليدويون المهن التى يريدونها لـ ٤٧,٤ ٪ من أبنائهم .

فى حين قرر العمال غير اليدويين المهن التى يريدونها لـ ٣٢,٣ ٪ من أبنائهم فقط .

(حـ) عندما سئل أفراد الفئتين عما إذا كانوا يطمحون إلى زيادة فى التثقيف أم يكفيهم ما لديهم من الثقافة :

أجاب $\frac{1}{3}$ العمال اليدويين بأنهم يطمحون إلى زيادة حظهم من الثقافة .

فى حين أجاب $\frac{7}{10}$ من العمال غير اليدويين بأنهم يطمحون إلى هذه الزيادة .

(د) وعندما سئلوا هل يكفيهم حظهم من الثقافة :

أجاب ٤٥ ٪ من العمال اليدويين بالإيجاب .

---

(١) system of values

بينما أجاب ١٧,٣ ٪ فقط من العمال غير اليدويين بالإيجاب .

(هـ) وعندما سئل الفريقان، إذا مُنحتم وقتاً للراحة زيادة على الوقت المعتاد ، فكيف تنفقونه صدرت الإجابات التالية :

١ — أجاب ٢٥٪ من العمال غير اليدويين بأنهم سوف ينفقونه فى الدراسة والتعلم والتمرين .

بينما أجاب ٣ , ١٤ ٪ فقط من العمال اليدويين بمثل هذه الإجابة .

٢ — وأجاب ٢١ ٪ من العمال غير اليدويين بأنهم سوف يسافرون .

بينما أجاب ١١ ٪ فقط من اليدويين بمثل هذه الإجابة .

٣ — وأجاب ١٠ ٪من غير اليدويين بأنهم سوف ينصرفون إلى بعض الهوايات التى يمكن ممارستها فى المنزل .

بينما أجاب ٢,٩ ٪ فقط من اليدويين بمثل هذه الإجابة .

٤ — وأجاب ١٠ ٪ فقط من غير اليدويين باختيار الرياضة والفسحة والراحة والتسكع . بينما أجاب ٤٠ ٪ من اليدويين بمثل هذا الاختيار .

(و) وعندما سئل الفريقان ، هل تعتقدون أنه يحسن بالمشتغلين بمثل مهنتكم أن ينضموا جميعاً إلى اتحاد أم لا ؟

أجاب $\frac{1}{2}$ العمال غير اليدويين فقط بالتحبيذ .

بينما أجاب $\frac{2}{3}$ العمال اليدويين بالتحبيذ .

هذه هى أهم النتائج التى انتهى إليها وليم فورم فى دراسته التجريبية ، وقد أجراها على عمال أمريكيين. ومما يزيد من القيمة الموضوعية لهذه النتائج ما تبينه هذا الباحث من أنها تتفق إلى حد كبير مع نتائج دراسة تجريبية مماثلة أجراها دوران H. Durant على عمال إنجليز . (W.H. Form 1946)

والذى يهمنا فى هذا النوع من البحوث ، هو ما يكشف عنه من عمق أثر مواقف العمل فى تشكيل أنماط الأبنية النفسية لدى أعضاء المجتمع [1]. ولا يقف

---

(١) يمكن للقارىء الذى يريد التوسع فى هذا الموضوع الرجوع إلى المرجع التالى :
Roe, A. *The Psychology of Occupations*, New York : John Wiley, 1956.

أثرها هذا عند حدود الأشخاص المواجهين لها مباشرة ، بل إنه لينفذ من خلالهم إلى أسراتهم فيطبعها بطابع خاص ، من حيث أنماط العلاقات القائمة بين أعضائها واستعداداتهم واتجاهاتهم . وقد أورد كلا ينبرج O. Klinebergالبيان الآتى عن الصلة بين نسب ذكاء الأبناء ومهن آبائهم ، (O. Klineberg 1947, p. 240)

جدول يبين الصلة بين ذكاء الأبناء ومهن آبائهم

المهنة	متوسط نسبة الذكاء	مدى الاختلاف الفردى داخل الفئة الواحدة
فنية عالية	١١٦	١٢٦ — ١٠٦
كاتب	١١٣	١٢٢ — ١٠٥
مدير	١١٢	١٢٣ — ١٠٤
تاجر	١١٠	١٢٠ — ١٠٠
مقدم عمال	١٠٩	١١٨ — ٩٨
عامل فنى	١٠٤	١١٤ — ٩٤
عامل غير فنى	٩٥	١٠٨ — ٨٥

كما أورد بياناً آخر مماثلا للبيان السابق ولكن فى حالة الزنوج الأمريكيين

فنية عالية	٩٨,١٥	١٥٠ — ٧٢
تجارية	٩٤,٩٩	١٥٧ — ٦٨
صانع حرفى	٩٣,٥	١٣٥ — ٨٠
عامل فنى	٨٧,٥	١٢٦ — ٦٠
عامل غير فنى	٧٣,١	١٠٣ — ٥٢

ومن الجدير بالملاحظة أن هذه الفوارق بين أبناء أسر المشتغلين بالمهن المختلفة وجدت لدى الأبناء قبل سن الالتحاق بالمدرسة ، وفى سن الالتحاق بالمدرسة ، كما وجدت عند الراشدين . إلا أنها لم توجد عند الأطفال الذين تقل أعمارهم عن

---

(١) prefessional

(٢) artisan

(٣) skilled labourer

سنة . . وهذا يدل بوضوح على أن هذا التحديد لنسب الذكاء سببه الرئيسى هو سيكولوجية مواقف العمل كما يواجهها الآباء .

فإذا كان لمواقف العمل هذا التأثير العميق الذى تثبته الدراسات التجريبية وتؤيده المشاهدة ، فلنا أن نستنتج عمق الأثر النفسى الذى يخلقه كل ما يتعلق بهذه المواقف ، لا سيما إذا كان يدخل فى صميم تنظيمها ويؤثر فى جميع خطواتها ونتائجها كتقسيم العمل . ولا بد من تقديم هذه المقدمة عن سيكولوجية مواقف العمل بوجه عام لتقدير خطورة النتائج المترتبة على موضوع تقسيم العمل . بل إننا لا نستطيع أن نغفل ذكر الدراسات التاريخية والأنثروبولوجية التى تبرز أهمية العمل فى تاريخ الإنسان بوجه عام ومدى مساهمته فى تحقيق إنسانية الإنسان . وسنكتفى هنا ببضع إشارات موجزة بالقدر الذى تسمح به حدود هذا البحث .

يقرر مالينوفسكى B. Malinowsky نتيجة لدراساته الأنثروبولوجية المستفيضة فى حياة الشعوب البدائية فى جزر المحيط الهادى أن السحر والزخرفة وتجمع الناس ارتبطت جميعاً فى كل واحد مع العمل ، وذلك لتنظيمه (B. Malinowsky 1932, p. 159) . ويقرر شاندراداس J. Chandra Das نتيجة لبحوثه فى الحياة الاجتماعية لقبيلة الشيرو على الحدود الشرقية للهند أن الزراعة أساس الحياة الاقتصادية لقبيلة الشيرو ، وأن جميع ضروب النشاط الأخرى سواء الاجتماعية والدينية والاقتصادية ترتبط بطريق مباشر أو غير مباشر بهذا العمل المنتج للغذاء . فمعظم الطقوس والاحتفالات الدينية الموسمية ترتبط بعمليات مختلفة داخلة فى زراعة الحقول الجبلية . فهم لديهم طقوس تتعلق بالبذر وتنظيف الحقول والحصاد . . . الخ . ويجتمع أبناء القرية جميعاً ليشاركوا فى أداء هذه الطقوس (Chandra Das 1937) .

Furfey, P.H. "The Relation Between Socio-Economic Status & Intelligence of Young Infants as Measured by the Linfert-Hierholzer Scale" *J. Genet. Psychol.*, 1928; 35 (Through O. Klineberg 1947).

وفى دراسة قام بها تومسون للمجتمع اليونانى القديم ينتهى إلى القول بأن الفنون الثلاثة ، الرقص والموسيقى والشعر بدأت كفن واحد. كان مصدرها الحركة الإيقاعية للأجسام البشرية المنهمكة فى العمل الجمعى . (G. Thomson 1949, p. 451) وفى دراسة أخرى مماثلة يروى هذا الباحث إحدى الأساطير التى ينعكس فيها أحد جوانب العلاقة بين العمل والفن . فيقول : عندما أنجبت ريا Rhea الطفل زيوس Zeus لم تقدمه لأبيه كرونوس Kronos لأنه كان من عادة كرونوس أن يلتهم أبناءه أولا بأول . لكنها قدمت له بدلا منه حجرا ملفوفاً فى أقمطة فالتهمه . وخوفاً على زيوس الصغير من أن يعلو صياحه حتى يصل إلى سمع أبيه عهدت به إلى قبيلة الكوريتيس Koretes ، فجعلوا يرقصون حوله وهم يقرعون طبولهم ويضربون دروعهم بحرابهم . وهذه الرقصة هى رقصة الحرب ، وكانت فى الأصل رقصة النحل. والمعروف عن الكوريتيس أنهم ابتكروا فن تربية النحل G. Thomson (1950, p. 109 . ويجمع مالينوفسكى وتومسون وكارل بوخر C. Bücher على أن للعمل علاقة ثيقة بديناميات التكامل الاجتماعى . ذلك أنه من خلال مواقف العمل الجمعى ظهرت اللغة وارتقت ، ظهرت كتعبيرات إيقاعية وكمحاولات للتواصل بهدف تنظيم العمل . ويرى مالينوفسكى أنه على هذا الأساس ينبغى أن يعالج الكلام باعتباره شكلا من أشكال الفعل . والموقف اللغوى الأساسى هو الموقف الذى يقوم فيه عدد من الأفراد بعمل مشترك ، وألفاظ بعضهم تضبط وتقود أفعال الآخرين . وبقدر ما يكون الكلام مجرد أشكال للفعل ـ على الأقل ، فى المجتمعات البدائية ـ فإن معناه يتحدد أولا بما ينتجه من تأثير فى الواقع الخارجى. وإذا كانت الدراسات الأنثروبولوجية تقرر ذلك فالدراسات الأنتوينية تؤيد هذه النتائج أيضاً إذا نظرنا فى ارتقاء الألفاظ ذات المعانى عند الطفل . وعلى هذا الأساس نستطيع أن نفهم كيف أن البناء النحوى الأساسى والمقولات النحوية الأساسية هى تعبير عن مقولات واقعية تشير إلى أشكال سلوك الإنسان ، أى طرائقه العملية فى التصرف إزاء بيئته (E.A. Esper 1935) . ويرى تومسون أن

اللغة ظهرت كجزء من التكنيك الخاص بالإنتاج: فقد كانت الجماعة البدائية تعمل معًا، وكانت توقت كل حركة لليد أو القدم ، وكل ضربة على الحجر، بصيحة غير مفصَّلة يلقيها الجميع معًا . وبالدراسة التطورية لهذه الصيحة يتضح لنا أنها تنقسم منذ البداية إلى قسمين ، أحدهما يعنى الاستعداد — O ، والآخر يعنى مباشرة الفعل، OP — . ويجرى التطور بحدوث تغير فى الجزء الأول فيزداد اتساعًا وتظهر فيه بعض الألفاظ التى تدل على « الاتجاه النفسى » للعامل نحو العمل الذى يمارسه، أما الجزء الثانى المرتبط بمباشرة الفعل فيظل ثابتًا . ونستطيع أن نتبين هذه الحقائق فى بعض مواقف العمل الجمعى التى لا تزال قائمة فى مجتمعاتنا الحديثة كما هو الحال فى أعمال البناء والتجذيف . ويرى تومسون أن هناك نوعًا من التفاعل بين العمل والتعبير الصوتى المصاحب له . فالعمل اليسير ذو الوحدات الحركية الصغيرة — كالتجذيف — يصاحبه مقطع إيقاعى قصير « O-op. »، فى حين أن العمل الشاق الذى يحتاج إلى مجهود كبير يصاحبه مقطع إيقاعى طويل (Ho-li-ho-hup) كما هى الحال عندما يجر البحارة مركبًا ثقيلا على مقربة من الشاطئ . وإلى مثل هذا الرأى يذهب كارل بوخر .

على هذا النحو تبدو مواقف العمل بالغة الأهمية فى حياة الإنسان الاجتماعية. فمن خلالها ظهرت الطقوس والفنون واللغة وأهم التنظيمات الاجتماعية التى هى فى أصلها ضروب من تنظيم العمل. ولهذا السبب لا يمكن لباحث فى السلوك الاجتماعى وفى موضوع التكامل الاجتماعى بوجه خاص أن يغفل هذه المواقف . وهنا يلزمنا أن نعيد ذكر ما سبق أن أوضحناه فى القسم الأول من هذا البحث بصدد فيلوجينية التكامل الاجتماعى. وقد بينا كيف أن الشمبانزية عاجزة — على أسس فطرية — عن القيام « بعمل » منتج متواصل ، وذلك نتيجة لافتقادها إلى شرطين أساسيين هما : اتساع « مجال الحياة الزمنى » نحو المستقبل، وهو الشرط اللازم لوضع خطط العمل ، « والاستقرار الوجدانى » وهو الشرط اللازم للارتباط بهدف العمل كقيمة ، واستمرار السعى نحوه لفترة تطول أو تقصر . وعلى

هذا الأساس نستطيع أن نتبين كيف أن مواقف العمل من أهم المواقف التى يحقق الإنسان من خلالها إمكانياته ، كما نستطيع أن نعمق فهمنا لقول كروبر A.L. Krœber إن الشمبانزى تعيش فى مرحلة الجمع والالتقاط ، ولا تستطيع أن تشيد حضارة .

وإذا كان لمواقف العمل هذه الأهمية البالغة فى حياة الإنسان ، وتاريخها هو مجمل تاريخه ، فتقسيم العمل حقيقة واقعة منذ أقدم العصور فيما تشير الدراسات التاريخية والأنثروبولوجية ، وذلك منذ أن عرف الإنسان النار أى منذ الإنسان الموستيرى غالبا Mousterian . فى هذه الفترة يرجح بعض الباحثين ظهور أول صورة من صور تقسيم العمل ، وهى تقسيم العمل بين الرجل والمرأة . وكانت هذه المرحلة أول مرحلة ترتفع فيها الجماعات البشرية عن مستوى الاكتفاء بالجمع والالتقاط . ثم تتابعت بعد ذلك مظاهر الارتقاء الاجتماعى ، وتعددت الأسس الاجتماعية لتقسيم العمل . فتاريخ العمل إذاً مرتبط بتاريخ تقسيم العمل . ولذلك عدة أسباب ونتائج . وفى بيان هذه الأسباب والنتائج يتضح أهمية هذه الوظيفة فى تحقيق التكامل الاجتماعى .

وربما كان من أهم الأسباب لذلك أن « العمل » ، كنشاط تكيفى يهدف إلى تغيير البيئة بما يحقق بعض مطالب الإنسان ، ظهر أول ما ظهر ، بصورة جمعية . فالجماعة هى التى تعمل لأنها هى التى تعيش . وهذا يتفق مع جميع الحقائق التى تدل على تضاؤل الفردية فى المجتمع البدائى ، كما يتفق مع ما تكشف عنه الدراسات الأنثروبولوجية من زيادة نسبة الأعمال الجمعية فى المجتمعات البدائية إلى درجة فائقة ، وازدياد نسبة الأعمال الفردية باطراد الارتقاء الاجتماعى . فالعمل إذاً قد بدأ جمعياً ، وبالتالى لم يكن بد من أن يتولى كل فرد من أفراد الجماعة القيام بنصيب معين فى إنجازه قد يكون متشابها مع أنصبة الآخرين أو مكملا لها ، لكنه على كل حال جزء من المشروع العام .

ولنتناول بضعة أمثلة ، لنستطيع بتحليلها أن ننفذ ببصيرتنا فى ديناميات تقسيم العمل .

(ا) يعتبر صيد اللبؤة أحد الأمثلة الواضحة للعمل الجمعى لدى قبائل الكبسجيس . ويروى پرستيانى (1939, p. 172) تفاصيله على النحو الآتى : يجتمع المحاربون جميعا — وهم حوالى ٤٠٠ محارب — عقب اعتداء اللبؤة على ماشية إحدى القرى وينظمون عملهم هكذا :

عند الغروب يذهب محاربان لاستطلاع أخبار اللبؤة وهل هى لا تزال مختبئة فى مكمنها . ثم يوضع عدد من المحاربين لحراسة جميع المنافذ التى قد تهرب منها اللبؤة . ثم يتقدم بقية المحاربين — حوالى ٣٠٠ محارب — فى جماعات صغيرة فيكونون دائرة محكمة حول مكمن اللبؤة .

ويقطعون الأشجار والأعشاب فى تقدمهم لكيلا تختبئ اللبؤة فيها .

ثم تضيق الدائرة حتى يقف المحاربون كتفا لكتف .

ثم يتقدم رجل من عشيرة اللبؤة ، ويخاطب اللبؤة قائلا :

إنك تقتلين حاجيات الناس من الماعز والماشية .

لذلك ألعنك ، ولأنك تنتمين إلى عشيرتنا ، فإننى أرميك بورقة . (أى أنه يطرد الحيوان خارج العشيرة . ويلاحظ أن مثل هذا الطقس يجرى عندما ينفى شخص خارج العشيرة لارتكابه جريمة قتل) . وعندئذ يرمى ورقة شجر فى اتجاه اللبؤة .

ويرفع كل المحاربين حرابهم إلى أكتافهم كأنما يستعدون للطعن . ويؤكدون كلمات الرجل التالية بأن يخطوا خطوة إلى الأمام بقدمهم اليسرى ويدفعوا بالحربة ، عند نهاية كل جملة ، وفى الوقت نفسه يرددون نغمة عميقة .

ويستطرد الرجل لاعنا اللبؤة ، بينما يردد المحاربون نغمة عميقة واحدة ، هكذا :

الرجل	المحاربون (وكأنهم جوقة)
« أخبروا الحيوان أن يموت ، قولوا لتمت . »	« م . م . م . »
« أخبروا الحيوان أن يضم مخالبه ، قولوا ليضم مخالبه . »	« م . م . م . »
« أخبروا الحيوان أن يتشبث بجذع شجرة ، قولوا ليتشبث »	« م . م . م . »

«أخبروا الحيوان أن يسقط فى أيدينا على غير وعى منه ،
قولوا ليسقط على غير وعى منه » « م . م . م . »
«أخبروا الحيوان أن يموت على يدى طفل ، قولوا سيموت« م . م . م . »
ثم يتقدم أبناء القرية التى اعتدت اللبؤة على ماشيتها ، يتقدمون نحو اللبؤة (وبذلك يتحملون أكبر قسط من المخاطرة) ، ويتبعهم سائر المحاربين يقرعون دروعهم بحرابهم وينفخون فى نفير ، حتى يقتلوا اللبؤة .

(ب) ويقدم مالينوفسكى B. Malinowsky مثالا آخر للعمل الجمعى لدى الشعوب البدائية فى المحيط الهادى : (1935, p. 102) وذلك فى عملية قطع الأعشاب من البساتين قبيل الزراعة . وتجرى على النحو الآتى :
١ — يجتمع الرجال أولا فى القرية ، حيث يتناولون قليلا من المنعشات .
٢ — ثم يبدأون العمل بأن يقفوا صفا واحدا ويتقدمون هكذا وسط الأعشاب ليقطعوها .
٣ — من حين لآخر يصيحون صيحة التاوكواكولا ta'ukwakula ، ثم يتقدمون للعمل من جديد . متجددى النشاط .
٤ — عندما يشعرون بأن العمل بدأ يتراخى (أو أن الحر قد اشتد ، أو الأعشاب قد ازدادت كثافتها بشكل منهك) يصيح أحدهم (وهو فى العادة رجل ذو مركز اجتماعية رفيع) :
« سأقدم اليوم كعكة من التارو » (أو أى طعام آخر) .
٥ — عندئذ يتوقف الجميع عن العمل ، ويجيبون فى شكل جوقة : « أو يكالا أو يكالا ، أو يكالا ، أو أو أو . . . . »
ويعود الجميع إلى القرية فيأكلون ويتجاذبون أطراف الحديث .
٦ — عندما ينتهى الرجال من الزراعة (التى يؤدونها بطريقة جمعية) ينشدون أنشودة معينة. وفيها تجد أحدهم يلقى بكلمات بينما يرد عليه الآخرون فى شكل جوقة.

٧ — ويلاحظ أن استئصال الأعشاب بالطريقة الجمعية التى وصفناها ، يمكن أن تقوم به النساء . أما الزراعة بالطريقة الجمعية فلا يقوم بها إلا الرجال .

(حـ) ويقدم شاندراداس Chandra Das مثالا ثالثا للعمل الجمعى عند قبائل الشيرو الهندية (1937) ، وذلك فى بعض العمليات الزراعية :

١ — فقبل كل عملية من هذا القبيل يتفق عدد من أبناء القرية على المساعدة المتبادلة فى تلك العملية . ويكوّنون لذلك جماعة تعرف باسم « إيام » Iam ، كما يعرف هذا العمل باسم « فونكاى » Phunkai .

٢ — وليس ثمة أى حد لعدد أعضاء هذه الجماعة ، لكنها تتألف عادة من حوالى خمس إلى ثمانى أسر .

٣ — ويشترك فى العمل جميع أفراد الأسرة ، ذكورا وإناثا .

٤ — ولا تتكون الجماعة إلا من أبناء القرية الواحدة . ولا يمكن أن تتكون من أبناء عدة قرى .

٥ — وتكون معظم العمليات الزراعية مسبوقة بطقوس دينية جماعية يشترك فى أدائها جميع أبناء القرية .

٦ — تمضى طريقة العمل بأن تتناول الجماعة حقول الأعضاء حقلا حقلا ، كلما فرغت من أحدها انتقلت إلى الآخر .

٧ — فى بعض الحالات تحدد تواريخ بعض العمليات كالحصاد مثلا ، بناءً على ما يقرره كبار أبناء القرية فى اجتماع خاص يعقدونه لذلك .

ويقدم كاردنر A. Kardiner أمثلة أخرى للعمل الجمعى عند قبائل جزر الألور من جزر الهند الشرقية . وعند شعوب أخرى متعددة . (1945) . إلا أننا نكتفى بهذه الأمثلة الثلاث التى قدمناها بشىء من التفصيل لأنها تبرز بما فيه الكفاية الخصائص الدينامية الرئيسية التى ينطوى عليها الموقف الاجتماعى الذى يتضمن تقسيم العمل .

ويمكن تلخيص هذه الخصائص الرئيسية فيما يلى :

١ — الاتفاق مقدما على خطة معينة للعمل . وهذا يتضمن التسليم مقدما بضرورة التعاون ، كما يتضمن التعاون فعلا فى مستوى معين من مستويات النشاط ، أعنى مستوى النشاط الذهنى . وكذلك يتضمن الحرص على جعل هذا التعاون يبلغ أعلى درجة من درجات الكفاءة .

٢ — تقسيم « المشروع العام » إلى مجموعة من العمليات الصغرى ، بعضها متجانس والبعض الآخر غير متجانس ، ويناط بكل فرد القيام بإحدى هذه العمليات . ويتدخل أحيانًا مركز الفرد فى القبيلة فى تحديد الجزء الموكول إليه إنجازه فى المشروع العام . وهذا يتضمن غالبًا قبول الفرد للعمل الموكول إليه ، كما يتضمن إدراك الفرد للمشروع العام من حيث أهدافه وحدوده ، وإدراكه لكونه جزءاً من هذا المشروع .

ونحن نقرر النقطتين الآخيرتين (أى إدراك الفرد للمشروع العام ، ولكونه هو نفسه جزءاً منه)بناء على حقية هامة هى ضيق نطاق المشروع ، (بما يلائم مستوى حياة مجتمع بدائى)، وحضور جميع الأعضاء معا فى مجال العمل ، وعلانية « الخطة العامة » للعمل بحيث يستطيع الجميع معرفتها . وهذه الحقائق من أهم مواضع الاختلاف بين ديناميات تقسيم العمل الاجتماعى فى المجتمعات البدائية ونظيره فى المجتمعات الحديثة ، وبالتالى من أهم الأسباب فى اختلاف الآثار السيكولوجية المترتبة على كل منهما ، اختلافًا عميقًا .

٣ — يصدر الكلام خلال مواقف تقسيم العمل ، كضرورة تحتمها هذه المواقف . وذلك لأداء عدة وظائف :

(ا) فهو يؤدى أحيانًا وظيفة تنظيمية بالنسبة للعمل، وذلك عندما يتخذ شكل صيحات إيقاعية تصدر مصاحبة لحركات معينة ، ومحدّدة (بالنسبة للجميع) نهاية حركة معينة وبداية حركة أخرى . فهو هنا وسيلة لتنظيم الحركات العضوية ، وبالتالى لتنميطها ، وبذلك يعمل على تقليل أثر الفوارق الفردية التى قد تعوق سير العمل بالتشتيت أو عدم التحالف ، أو تقلل من كفاءته

بأية وسيلة أخرى . كما أنه يكون ذا أثر تنويمى يرفع عتبة الشعور بالتعب لدى الأعضاء ، فيزيد من قدرتهم على مواصلة العمل . أضف إلى ذلك أن هذا التأثير التنويمى نفسه يؤثر فى الأعضاء بزيادة قابليتهم للإيحاء المتبادل .

(ب) ويؤدى أحياناً وظيفة سحرية ، وذلك بمحاولة التأثير فى الواقع الخارجى « من بعيد » بحيث يكون التأثير فى نفس اتجاه تأثير العمل .

(حـ) ويؤدى أحياناً وظيفة «مساعدة العمل» عن طريق تشجيع الأعضاء العاملين ببذل الوعد بالمكافآت .

(د) ويؤدى أحياناً وظيفة تنظيمية بالنسبة للعلاقات الاجتماعية القائمة بين الأعضاء القائمين فى موقف العمل . وقد رأينا مثالا لذلك فى صيد اللبؤة ، إذ يتقدم رجل من عشيرتها ليقول لها « ألعنك . . . . وأرميك بورقة » . ومعنى ذلك إعادة تعيين الحدود ، حدود العشيرة بعد طرد هذا العضو منها .

٤ — يتجمع الأعضاء لأداء طقوس جماعية معينة تتعلق كلها بالعمل ، بعضها يسبقه وبعضها يتخلله بعد الانتهاء من كل مرحلة كبيرة من مراحله ، وبعضها يؤدى بعد الفراغ منه .

هذه هى الخصائص الرئيسية لديناميات المواقف الاجتماعية التى يتحقق فيها تقسيم العمل . فإذا نظرنا إليها على ضوء دراستنا الفيلوجينية التى قدمناها من قبل ، تبين لنا أنها — أى هذه الخصائص — إنسانية بأدق معانى هذه الكلمة . أى أنها تتضمن التسليم بتوفر شروط بيولوجية معينة ، لا تتوفر إلا فى المستوى البشرى . فوضع خطة جماعية للعمل قبل الشروع فيه ، وممارسة الكلام ، أمران ينطويان على تحقق مستوى ارتقائى معين للنشاط الذهنى وللعمليات الرمزية كما ينطويان على توفر القدرة على استحضار صورة ذهنية للواقع . مما لا يتحقق فى المستويات تحت البشرية . كما أن الاتفاق الجماعى على وضع هذه الخطة ، وتصميم أجزائها بحيث « يشترك فى تنفيذها » عدد من الأفراد يتضمن قدرة على تصور موقف «الآخر» وإدخاله فى حسابنا . وقد أوضحنا كيف أن هذا لا وجود

له فى المستويات البشرية .

وكذلك أوضحنا كيف أن المثابرة على القيام بعمل معين منذ بدايته حتى نهايته تتطلب شروطا لاوجود لها فى تلك المستويات . فهى تتطلب درجة معينة من الاستقرار الوجدانى ، تسمح بالارتباط لمدة كافية بقيمة هذا العمل ، كما تتطلب من الاستعدادات ما يسمح بالارتفاع المطرد لمستوى الطموح حتى يستطيع الشخص أن يعبر كل مرحلة من مراحل العمل إلى المرحلة التى تليها ، كما تتطلب القدرة على تصور « المثل الأعلى للذات » (وهو الذات عندما تنتصر فتحقق المهمة الموكولة إليها) وإسقاطه على المستقبل ، بحيث يضيف قيمة إيجابية جديدة إلى الموقف التصورى للوصول إلى الهدف ، فتعمل على زيادة تنشيط الشخص فى أداء العمل . وجميع هذه الشروط لا تتحقق إلا فى مستوى الحياة البشرية .

وقد يكون من المفيد أيضا أن ننظر إلى هذه الحقائق مرة أخرى ، بنظرة أنتوجينية . فلقد أوضحنا فى دراستنا الأنتوجينية كيف أن الضعف النسبى للنشاط الذهنى لدى الطفل فى الرابعة أو الخامسة ، وانخفاض درجة استقراره الوجدانى ، وعجزه عن « اعتبار موقف الآخر » ، تساهم جميعا فى جعل الجماعات التى يكونها ضئيلة الحظ من الاستقرار والتفاعل . وفى تتبعنا لارتقاء الطفل حتى المراهقة لم نجد الجماعات التى تقوم على برنامج موضوعى ، أو تأتلف للتعاون فى سبيل الوصول إلى هدف محدد . وهذا صحيح بالنسبة لعصابات ما قبل المراهقة وصداقات المراهقة . ورغم ما أوضحناه فى دراستنا التجريبية من شدة تعلق المراهق بأصدقائه ، فقد بينا كذلك كيف أن هذه الصداقات تكون غالبا ضئيلة الحظ من الاستقرار ، أما عصابات الأطفال قبل المراهقة فقد أوضحنا كيف يتوفر فيها عنصر « التنظيم » لكنه تنظيم أجوف ، يختلف فى دلالته عن التنظيم الذى يترتب على تقسيم العمل ، فهو مجرد انعكاس لظاهرة التنظيم فى الحياة الاجتماعية ، يتشبث الأطفال به كدعامة ترتكز الذات عليها فى أثناء نموها على نمط الذوات الراشدة حولها . أى أنها تكون مدفوعة بنفس الدوافع التى تظهر على أساسها « عبادة البطولة » فى

هذه المرحلة ، وامتصاص الطفل لكثير من قيم الراشدين المحيطين به . وهذا يختلف اختلافاً عميقاً عن التنظيم الذى يترتب على تقسيم العمل لزيادة الكفاءة . ومع ذلك فإننا لا نستطيع أن نغفل قيمته كمرحلة من مراحل إعداد الشخصية وتدريبها لتصلح فيما بعد للدخول فى مواقف تقسيم العمل . إلا أن هذه الحقيقة ينبغى ألا تدفعنا إلى المبالغة فى تقدير قيمته ، ويكفى للدلالة على ذلك أن هذه العصابات لا يكون لها برنامج عمل واضح مستقر ذو قيمة موضوعية ، كما أن التنظيم القائم فيها يكون على درجة منخفضة من الارتقاء ، إذ لا يقوم التغاير فيها إلا بين « رئيس » ومرؤوسين .

تدل جميع الدلائل إذاً على أن مواقف تقسيم العمل هى أهم المواقف التى استثارت فى الإنسان استعداداته للتكامل الاجتماعى وأبرزت جميع إمكانياتها . ولا يمكن تفسير القدرة العظيمة لهذه المواقف على استثارة هذه الاستعدادات وتشكيلها إلا من خلال مفهوم « الحاجة » من ناحية ومفهوم « العمل كقيمة » رئيسية أو بالأحرى كمصدر للقيم المشبعة . على أن هذين المفهومين لا يكفيان للتفسير الدينامى الدقيق بل هما الأساس فقط لتفسير مدى ثقل هذه المواقف ، أما كيف استثارت هذه الاستعدادات وكيف شكلتها فلابد من الرجوع فى ذلك إلى جميع ديناميات الموقف متكاملة .

لابد من الرجوع إلى أثر « التنظيم » فى تحديد مهمة كل فرد منذ البداية ، وما لذلك من أثر هام فى تقليل احتمالات الاصطدام والاحتكاك المتكرر وظهور مشاعر الإحباط[1] من حين إلى آخر بين أعضاء الجماعة . وهنا يلزمنا الرجوع قليلا إلى تجربة ليبيت وهوايت R. Lippitt & R. White ؛ فقد كشفا فى هذه التجربة عن انخفاض درجة التكامل بين أعضاء الجماعات الفوضوية نتيجة للأسباب الآتية :

١ — ضيق « مجال الحركة الحرة » ، نتيجة لكثرة الاحتكاكات الناتجة

---

(١) frustration

عن عدم تحديد مهمة كل فرد منذ البداية .

٢ — إحباط محاولات إشباع «الحاجة إلى توضيح معالم البناء» الذى تسعى الجماعة إلى إقامته .

٣ — الدائرة المفرغة : إحباط عدوان إحباط . إذ أن حرمان الأفراد من التوجيه الذى من شأنه أن يزيد فى حريتهم ، يؤدى إلى ظهور توترات تظهر فى تنافس الأفراد تنافساً غير موجّه ، فينجم عنه إحباط الأفراد بعضهم لبعض (R. Lippitt & R. White 1943) كذلك أجرى فرنش J.R.R. French تجربة لاختبار رد الفعل الذى تحدثه جماعتان إحداهما منظمة والأخرى غير منظمة ، نحو الإحباط . وكان الموقف الذى أجرى فيه الاختبار عبارة عن تعاون أفراد الجماعة جميعا على حل مشكلة معينة . وبملاحظة سلوك الأفراد فى الحالتين ، وبالاستعانة بالاستبارات ، تبين أن بين الجماعتين اختلافا كبيرا . فالجماعة المنظّمة أظهرت مزيدا من الشعور بالنحن . كما أظهرت دافعا نحو حل المشكلة أقوى مما أظهرته الجماعة غير المنظمة . وكان بين أفراد الجماعة المنظمة مشاركة فى العمل على أساس المساواة ، أما فى الجماعة غير المنظمة فكان بعض الأفراد يتحملون نصيبا كبيرا من العمل والآخرون لا يكادون يتحملون شيئا . كما أن الجماعة المنظمة أظهرت مزيدا من الشعور بالإحباط ومن المشاعر العدوانية عندما أُغلقت فى وجهها المسالك المؤدية إلى حل المشكلة ، أى أن الجماعة المنظمة أظهرت دافعا أقوى إلى التغلب على عقبات الطريق (L. Festinger 1950) . فالتنظيم إذاً ، كما يتضح من هذه الدراسات وغيرها ، أحد العوامل الهامة فى تحقيق التكامل الاجتماعى (S. Freud 1940, p. 82) . وقد أوضحنا من قبل الآثار المختلفة لأنماط التنظيم المتباينة . كما أجريت عدة بحوث فى هذا الصدد . (R.B. Cattell 1945 'b'; K. Lewin 1947)

وكما أوضحنا أثر التنظيم يلزمنا كذلك أن نوضح أثر « التعاون الرشيد » . وربما كان من أهم آثاره تنمية الشعور بالحاجة إلى الآخر ، والتدريب على التنازل

والبذل وتعديل موقف الذات ، وتنمية مختلف الوسائل اللازمة للتفاهم مع الآخر ، واستثارته للتعبير عن وجهة نظره حتى نعرف كيف ننفذ إليه ، أو ماذا يطلب منا . وبقدر ضخامة القيمة الموضوعية للمشروع الذى ندخل فيه ، وثباته أو تكرار المواقف التى يمليها ، وبقدر موضوعية الهدف الذى نمضى إليه ، وقبولنا لهذا الهدف ، ولبذل المجهود فى سبيله ، ينتج التعاون آثاره التى نذكرها . على أن التعاون يتيح — زيادة على ذلك — ظهور التخصص وهو شرط لابد منه لإتقان العمل وزيادة كفاءته (J.F. Dashiell 1935) . وقد اهتم أصحاب المشروعات الإنتاجية بهذه الحقيقة الأخيرة اهتماما كبيراً وبذلوا الجهود لتضخيمها إلى درجة جعلتها تناقض المطلب التعاونى الذى هو الأصل فى ظهورها . فالتخصص فى دور الأعمال الحديثة يختلف اختلافا كبيراً عنه فى الأعمال الجمعية فى المجتمعات البدائية . فهو فى دور الأعمال الحديثة يعنى جهل الفرد بالخطة العامة للمشروع وأهدافه ، وعدم مساهمته فى إعدادها ، وجهله بالخطوات الكبرى اللازمة لتنفيذ المشروع ، بل وجهله بالخطوات التى تجتازها السلعة التى يساهم فى صنعها ، وعدم درايته بمستقبل الجزء الصغير الذى صنعه . وبذلك يستحيل العامل فى المصنع الحديث إلى ما يشبه الترس فى الآلة . وفى مثل هذا الموقف لا يحقق تقسيم العمل مهمته التكاملية التى كان يحققها فى المجتمع البدائى . فهو ينفى أساساً لابد منه ، وهو الشعور بالكل وقبوله . حتى يمكن إقامة الشعور بعضوية الجزء من خلاله . كما أنه ينفى الشعور بأهمية الآخرين فى تنفيذ المشروع .

وإلى جانب التنظيم والتعاون الرشيد لابد من ذكر « اللغة » . وقد أوضحنا الوظائف الرئيسية التى تقوم بها فى مواقف تقسيم العمل لدى البدائيين ؛ نذكر منها الآن تنظيم العمل ، وتنظيم العلاقات الاجتماعية فى موقف العمل . وينبغى أن نضيف إلى ذلك إشباع الحاجة إلى الآخر ، تلك الحاجة التى تبرزها ضرورة التعاون الرشيد . ينبغى إذاً أن ندرك مواقف تقسيم العمل على هذا النحو ، حتى نتبين دلالتها فى بزوغ هذا المستوى الارتقائى الفريد الذى يحتله تكامل المجتمع

البشرى . ومن الجلى أن هذه المواقف تتضمن عدة إمكانيات أخرى ، بالإضافة إلى ما ذكرنا ، تساهم جميعا فى تحقيق هذا التكامل . ويكفى هنا أن نشير إلى البذور التى تبدو بكل وضوح حاملة إمكانيات الطقوس والدراما . وإن التشابه ليبدو بجلاء بين بعض التنظيمات التى ذكرناها ، وبين موقف الجوقة والممثل فى مسرحيات إسخيلوس Aeschylus [1] .

التواصل :

أوضحنا فى حديثنا عن تقسيم العمل كيف نشأت اللغة كضرورة يحتمها موقف تقسيم العمل لأداء وظائف معينة هى :

(ا) « الإيقاع » ، لضبط خطوات العمل ، « والسحر » لزيادة كفاءته .

(ب) « وتنظيم علاقات » القائمين بالعمل .

وقد تطورت اللغة واتخذت عدة مظاهر ، إلا أنها لا تزال تؤدى هاتين الوظيفتين فى كل مظهر من مظاهرها . فهى تهدف دائماً إلى التأثير فى الآخرين ، للتأثير عن طريقهم فى الواقع الخارجى . وفى اتجاهها نحو الآخرين تعمل على تحقيق التكامل الاجتماعى كأداة شديدة الكفاءة .

إن لغة الألفاظ هى الأداة الرئيسية لتحقيق التواصل بين أعضاء المجتمع ، وذلك لتعقدها الشديد مما يجعلها أكثر مرونة واتساعاً لإمكانيات التعبير ، وللمساهمة فى تحقيق أدق عمليات التفاعل بين الأنا والآخر . وقد أوضحنا من قبل مدى ثراء النمو اللغوى للطفل ، ومدى مساهمته فى تنمية سلوكه الاجتماعى . سواء من حيث اندماجه فى الآخرين ، وازدياد شعوره باستقلاله عنهم .

على أننا لا نستطيع أن نتوسع هنا فى موضوع سيكولوجية اللغة . فمثل هذا

---

(١) يبدو هذا التشابه واضحاً فى مواقف صيد البؤة عند قبائل الكبسجيس . كما أنه يبدو فى مواقف العمل الجمعى الشاق التى تتم بطريقة أقرب إلى البدائية منها إلى الطرق الفنية ، كما هو الحال فى بعض أعمال البناء ورصف الطرق .

الموضوع يحتاج إلى بحث مستقل ، لكن الذى يعنينا هو الإشارة إلى مدى مساهمتها فى تحقيق التواصل الذى هو أحد عوامل التكامل الاجتماعى . أى أن عنايتنا منصرفة أساساً إلى وظيفة التواصل للكشف عن دلالتها فى البناء الاجتماعى .

إن التواصل وظيفة رئيسية فى أى بناء متكامل ، سواء أكان هذا البناء بيولوجيا أم سيكولوجيا أم اجتماعيا. ويوضح برنان M. Prenant هذه الحقيقة بالنسبة للأبنية البيولوجية ، فيقول إنه فى أى كائن مهما بلغ من التعقد ، نجد أن احتفاظه ببنائه وهيئته يعتمد على عدد من التفاعلات التى تجرى بين خلايا كل نسيج وبين الأنسجة المتلاصقة ، وبين الأعضاء التى قد تكون متباعدة أحيانا ، وذلك بوساطة الهرمونات أو الجهاز العصبى . ومن هذه التفاعلات ينجم . . . التوازن الكلى الذى لا يختل إلا فى حالات شاذة كحالة السرطان. ويوضح براون J.F. Brown هذه الحقيقة بالنسبة للشخصية فيقول إن التواصل بين المناطق المختلفة فى هذا الجشطلت شرط التكامل. (1936, p. 302) . وكذلك الحال فيما يتعلق بالمجتمع ، على أن نتنبه إلى الفوارق بين مستويات التواصل فى كل من هذه الأبنية الثلاث .

ولكى يزداد فهمنا لمدى تعقد عملية التواصل فى المجتمع ، وبالتالى لمدى عمق تأثيرها ، ينبغى لنا أن نقارن بينها وبين عمليات التواصل فى تجمعات النمل والشمبانزية . وقد أوضحنا أثناء حديثنا عن هذه التجمعات حدود هذا التواصل ، الذى يعتمد على اللمس المتبادل لدى النمل . ويصل لدى النسانيس النابحة إلى درجة الاعتماد على الأصوات . لكنه يظل مع ذلك شديد الفقر والتحجر إذا قررنا بما يحققه فى المجتمع البشرى . وسبب ذلك أن التواصل فى المجتمع البشرى يعتمد على أساسين لا يتحققان فى المستويات تحت البشرية ، هما :

(ا) اللغة ذات الألفاظ ، ومصاحباتها من إشارات وإيماءات .

(ب) درجة فائقة من المرونة تتوفر فى البناء السيكولوجى لأعضاء المجتمع .

ويحقق التواصل مهمته من خلال عمليتين رئيسيتين ، هما :

(ا) أنه يزيد من قدرة الأفراد على التكيف المتبادل .

(ب) وأنه يزيد من درجة اندماج الذوات فى « النحن » .

ومن أوضح الدلائل على سير العملية الأولى ، ما نلاحظه من ازدياد قدرة الطفل على التعامل مع الأطفال المماثلين له فى العمر الزمنى بازدياد ارتقائه اللغوى ، وما نلاحظه من ازدياد اعتماده على النشاط اللغوى فى تعامله مع الآخرين بوجه عام .

وفى أثناء حديثنا عن تجربة ليبيت وهوايت ذكرنا تفوق عدد مرات التواصل بين الأعضاء فى الجماعات الديمقراطية عنه بين أعضاء الجماعات الأخرى . وقد أجريت عدة بحوث تناولت عملية التواصل وآثارها النفسية الاجتماعية من عدة جوانب ، وكلها تبرز مدى أهميتها فى تحقيق الاتزان داخل الجماعة على أساس الحد الأدنى من التوترات . ففى بحث تجريبى أجراه ألبورت F.H. Allport على عدد من الأشخاص بأن كلفهم بالحكم على عدة أثقال بالنسبة لثقلين معينين ، أحدهما أثقل من الأثقال المحكوم عليها جميعا والآخر أخف منها انتهى إلى أن الأشخاص كانوا فى حضور الجماعة يتحرجون فى أحكامهم ، فيميلون إلى الاعتدال (R.T. LaPiere & P.R. Farnsworth 1942, p. 444) كذلك أجرى نيوكوم T.M. Newcomb تجربة فى إحدى المدارس الثانوية الأمريكية ، بهدف الكشف عن أثر عضوية الفرد فى جماعة ما على اتجاهاته . فوضع لذلك استخبارا يمكنه من حصر الآراء السياسية لدى الطلبة وتنظيمها فى تدرج يبدأ من « اليسارى » أو الثورى « اليمينى » أو المحافظ ، وجعل يوزعه على الطلاب بعيد التحاقهم بالمدرسة ، ثم لمدة ثلاث سنوات متتالية . فتبين أن الطلبة يكونون غالبا محافظين فى البداية . لكن الاتجاه السائد فى المدرسة كان الاتجاه اليسارى ، فكان يلاحظ أن جميع الطلبة الذين قبلوا كأعضاء فى الجماعات القائمة بالمدرسة أصبحوا يساريين ، أما أولئك الذين ظلوا منعزلين بلا أصدقاء فقد أصبحوا متطرفين فى يساريتهم ، فى حين أن الذين حاولوا أن يلتمسوا القبول وفشلوا صاروا محافظين متطرفين ، (G. Taylor 1950)

ويروى جوردون تيلر G. Taylor قصة مجموعة من السيدات الأمريكيات ذوات المركز الاجتماعى الممتاز ، تقدمن إلى السلطات أثناء الحرب العالمية الأخيرة لأداء أية خدمة وطنية توكل إليهن . فطُلب إلى كل منهن على انفراد أن تقوم بتنظيف بعض المستشفيات ، لكن كلا منهن رفضت القيام بهذا العمل . فما كان من المشرف إلا أن جمعهن معا ووضع المسألة موضع نقاش عام . وبعد قليل ارتضين القيام بنفس العمل الذى سبق لهن رفضه . والمهم هو خطوات العملية التى تم بها اتفاقهن . فقد بدأت إحدى السيدات بأن أظهرت بعض الموافقة من هذا النوع . « سوف أقبل إذا قبل غيرى » . فاندفعت الأخريات تُعدن النظر فى موقفهن ، وتقدمت إحداهن خطوة أخرى نحو التعاون ، وعادت الأخريات إلى تقدير الموقف كله مرة أخرى. وهكذا انتقلن من موقفهن السلبى الأول إلى موقف إيجابى تعاونى عن طريق سلسلة من التعديلات الصغيرة التى ما كان لها أن تتم لولا اجتماعهن فى هذا الموقف الذى أتاح قيام التواصل بينهن . (ibid.)

ويرى مورفى G. Murphy أن «التفكير الجماعى» الذى تتيحه أمثال هذه المواقف يتفوق غالبا على التفكير الفردى من حيث الكم والكيف . ويرجع ذلك إلى الحقائق الآتية : (G. Murphy & others 1937, p. 738).

١ — تعدد طرق النظر إلى المشكلة موضوع التفكير .

٢ — ظهور عدد كبير من « اللمحات » أو « الاقتراحات » المتجهة نحو الحل .

٣ — ظهور عدد كبير من ضروب النقد موجهة ضد الخطط المقترحة .

٤ — قبول النقد الاجتماعى .

ويُجمل داشيل J.F. Dashiell هذه الحقائق جميعاً فى قوله ، إن حضور الآخرين يؤدى إلى جعل التفكير أكثر موضوعية وأقل ارتباطا بالعوامل الشخصية (1935) . كذلك أجريت عدة بحوث تجريبية تبين عمق أثر القرار الجماعى

الذى يصل إليه عدد من الأفراد معا من خلال مناقشات تتيح لكل منهم أن يبدى مخاوفه واعتراضاته ويطلع على آراء الآخرين. فقد أجريت التجربة الآتية :

خطوات التجربة :

١ — إيجاد ست مجموعات ، يتراوح عدد أعضاء كل منها بين ١٣ و ١٦ امرأة .

٢ — ثلاث مجموعات من هذه المجموعات الستة ألقيت عليها محاضرة فى فائدة أكل أحشاء الشاة . وشرحت فى المحاضرة كل الوسائل التى تكفل التغلب على الجوانب التى تدعو إلى الاشمئزاز (كالرائحة والشكل) . ثم انصرف أفراد المجموعات الثلاثة .

٣ — الثلاث مجموعات الأخرى نُظمت لها مناقشات فى الموضوع ، وفى أثناء المناقشات كان المسئول يذلل لهن كل عقبة تبدو أمامهن . وبعد انتهاء المناقشات اتخذت المجتمعات قرارا .

٤ — تتبع الباحثون أفراد المجموعات الستة ، واتصلوا بهن فى بيوتهن لمعرفة أثر المحاضرة ، والفرق بينه وبين أثر النقاش المنتهى إلى قرار .

النتيجة :

١ — فى حالة المجموعات الثلاثة التى تلقت المحاضرة لم يقدم على تجريب الطعام الجديد إلا ٣ ٪ من الأعضاء .

٢ — فى حالة المجموعات الثلاثة التى اشتركت فى مناقشات انتهت إلى اتخاذ قرار أقدم على تجريب الطعام الجديد ٣٢ ٪ من الأعضاء .

تعليق :

يعلق لفين K. Lewin على هذه التجربة ونتائجها بالتعليقات الآتية :

١ – فى المحاضرة يكون الشخص سلبيا إلى حد كبير . أما فى المناقشة فإنه يقف موقفا إيجابيا بين حين وآخر مما يجعله مندمجا[١] فى الجماعة أكثر من المستمع إلى محاضرة .

ولذلك يلاحظ فى المناقشات المنتجة نقطتان هامتان :

(ا) تهيئة الفرصة لزيادة اندماج الشخص فى الموقف الاجتماعى .

(ب) عدم منع حرية المناقشة ، بإعطاء الفرصة الكافية لإظهار الجوانب المختلفة للاعتراض .

٢ – المحاضرة تصل إلى الشخص « كفرد » فهو من الناحية السيكولوجية فرد منعزل عن الجماعة ولو أنه يجلس بينها . أما فى المناقشة فالآراء تصل إلى الشخص « كعضو » أو « كجزء فى الجماعة » .

٣ – القرار نفسه يعتبر عملية بالغة الأهمية فى التقدم نحو الفعل ، مع أنه عملية تتم فى دقائق (K. Lewin 1947) .

ويلاحظ أن السيدات اللاتى أجريت عليهن التجربة السابقة كن على تعارف سابق فيما بينهن نتيجة لعضويتهن جميعاً فى جمعية الصليب الأحمر . وقد أعادت داناكليزوريخ D. Klisurich إجراء التجربة نفسها ولكن على سيدات لم يكن بينهن تعارف من قبل ، فلم يكن يتزاورن ، ولم يكن عضوات فى ناد أو جمعية واحدة . ومع ذلك فقد تحققت النتيجة نفسها (ibid).

هذه الدراسات جميعاً توضح الآثار المختلفة للتواصل بين أعضاء الجماعة ، ويمكن تلخيصها فيما يلى :

١ – تحقيق التقارب الذهنى .

٢ – تنميط الاتجاهات .

٣ – زيادة اندماج الشخص فى الجماعة .

---

(١) involved

٤ ـ زيادة كفاءة التفكير بزيادة موضوعيته ، نتيجة لانخفاض نسبة العوامل الشخصية .

٥ ـ زيادة تمكين الأعضاء من التكيف المتبادل ، فى مستويات الشخصية المختلفة. ويرى كرش وكرتشفيلد D. Krech & R.S. Crutchfield أن انغلاق الناس بعضهم بالنسبة للبعض وجهلهم بآراء واتجاهات بعضهم البعض يؤدى إلى ظهور «توترات» تقلل من استقرار الموقف وتكامل الجماعة . ولذلك فإن بحوث «الرأى العام» التى تهدف إلى معرفة اتجاهاته وإذاعتها من شأنها أن تساهم فى خفض التوترات داخل المجتمعات الحديثة (D. Krech & R.S. Crutchfield 1948, p. 307) . وجدير بنا أن نشير فى هذا الموضع إلى رأى شولته H. Schulte فى أن «الحاجة إلى النحن» إذا استبدت بشخص وسُدت أمامه كل السبل إلى التواصل ترتب على ذلك ظهور توترات دافعة له نحو السلوك المنحرف الذى قد يصل إلى حد ظهور بعض الأعراض الذهانية (H. Schulte 1938) . وجدير بنا كذلك أن نشير إلى حقيقتين هامتين أوضحناهما أثناء حديثنا عن الارتقاء اللغوى للطفل فى السنة الثالثة : هما ازدياد كمية النشاط اللغوى للطفل بشكل ملحوظ فى المواقف الاجتماعية المحبوبة لديه ، ومحاولته توصيل خبراته الوجدانية العنيفة إلى الآخرين واحتجاجه الشديد على عدم استجابتهم بانفعال واضح . من ذلك يتضح مدى أهمية وظيفة التواصل فى المجتمع وفى المواقف الاجتماعية .

ومن البحوث القيِّمة فى ديناميات التواصل بحث أجراه لازارسفيلد (R.F. Lazarsfeld & others 1947) فى « العوامل الاجتماعية التى تؤثر فى عملية التصويت فى الانتخابات» ، فقد انتهز فرصة انتخابات الرئاسة فى الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٤٠ فقصد قبيل إجرائها إلى تطبيق استبار على ٦٠٠ شخص من أوهيو ، وانتهى من ذلك إلى عدة نتائج ، يهمنا منها ما يأتى :

لتحقيق التجانس فى الرأى السياسى داخل الجماعة ، لوحظ أن الاتصال

الشخصى أبعد أثرًا من طرق التواصل المختلفة التى تتم عن بعد. (كالمنشورات ، والإذاعة اللاسلكية) وذلك لسببين :

١ ــ أن الاتصال الشخصى يصل إلى عدد من الناس أكثر غالبا ممن تصل إليهم الوسائل الأخرى .

كما أنه يصل إلى هؤلاء القوم عددًا من المرات يفوق عدد المرات التى تصل فيها الوسائل الأخرى إليهم .

٢ ــ أن للاتصال الشخصى مزايا سيكولوجية لا تتوفر لطرق الاتصال غير المباشر. منها :

(ا) أن الاتصال الشخصى يكون فى معظم الأحوال لأغراض غير سياسية، (أغراض خاصة بالعمل ، أو مصادفة ، أو نزهة . . . الخ) ، ثم يعرض الحديث للسياسة عن غير قصد . وهذه الحقيقة نفسها ــ « العرض عن غير قصد » ــ ذات أهمية كبرى . إذ نفاجأ برأى الغير ، فإذا كان مخالفا لرأينا فإننا نواجهه غالبا بدون أسلحة ، وبذلك يغلب عليه أن يؤثر فينا تأثيراً فعالا .

(ملحوظة تتعلق بحدود صدق هذا الرأى: يصدق هذا الرأى على أغلبية أبناء المجتمع ، ممن ليس لديهم من قبل رأى متبلور وعلى درجة عالية من التفصيل والثبات) .

(ب) مرونة الاتصال الشخصى . فالشخص الذى يتولى الدعوة لحزب معين يمكنه أن يختار اللحظة المناسبة والظرف المناسب . وإذا صادف مقاومة فى لحظة ما يمكنه أن يتراجع تراجعا مؤقتا حتى لا يزيد من شدة المقاومة . وهذا لا يتيسر لوسائل الدعاية غير الشخصية .

(حـ) قدرة الاتصال الشخصى على أن يكافىء بالثواب أو بالعقاب . إذ يستطيع الشخص الذى يحاول أن يقنعك برأى معين أن يغضب إذا شعر بعدم موافقتك ، ويتركك تمضى ، فإذا بك تخسر صديقًا ، ويشعرك بأن رأيه يمثل رأى الأغلبية ، فأنت إذاً تنعزل عن الأغلبية بمخالفتك له ، وتلك كلها عقوبات.

كما يستطيع أن يبتسم ويمدحك إذا وافقته . وهذه الميزة لا تتوفر بهذه الدرجة للدعوة أو للدعاية غير المباشرة .

الشعور بهدف موحد وقبوله :

يجمع براون J.F. Brown (1936, p. III) ، ولابيير وفارنز ورث R.T. La Piere & P.R. Farnsworth (1942, p. 293) ، وكرش وكرتشفيلد D. Krech & R.S. Crutchfield (1948, p. 396) ، وهيدلى كانترل H. Cantril (1947) ، على اعتبار الشعور بهدف موحد وقبوله عاملا هاما من عوامل التكامل الاجتماعى . وقد أوضحنا بما فيه الكفاية أهمية « الاتفاق مقدما على خطة العمل » فى مواقف تقسيم العمل ، وهذا يتضمن معرفة بالهدف وقبولا له . كما أن مواقف المناقشات التى أوردناها فى حديثنا عن التواصل يمكن أن تلقى بعض الضوء على هذا الموضوع أيضا سواء من ناحية المعرفة ومن ناحية القبول . ومن ثم فإننا نكتفى هنا بذكر الجوانب الدينامية الرئيسية لهذا العامل ، كما أوردها كانترل (1947) :

(ا) « شعور الجماعة بالهدف » الذى تعمل من أجله ، ومن ثم وجب اطلاع الجماعة على كل ما يتعلق به .

(ب) درجة « الارتباط » بهذا الهدف وقبوله ، دون قهر ولا تهديد .

(حـ) درجة اقتناع الجماعة بأن هدفها « يمكن أن يتحقق » .

(د) « تصميم الجماعة على بلوغ الهدف » بأى ثمن . ومن ثم فإن التضحيات التى يقدمها الأعضاء هى خير مقياس لقياس شدة اقتناعهم وتمسكهم بالهدف .

(هـ) يجب أن يشعر الفرد بأنه يساهم بنصيب له أهميته فى خطوات الجماعة نحو الهدف . ويجب أن نضيف إلى ذلك شعور الجماعة بالقيمة الموضوعية للهدف ، وصلته بحاضر الجماعة ومستقبلها ، وموضعه من نظام القيم العام السائد فى المجتمع .

تلخيص

تحدثنا فى هذا الفصل عن العوامل الرئيسية للتكامل الاجتماعى ، وهى الاشتراك ، وتقسيم العمل الاجتماعى ، والتنظيم ، والتواصل ، والشعور بهدف موحد وقبوله . وقد حرصنا على أن نبين هذه العوامل فى صورة دينامية باعتبارها وظائف فى البناء الاجتماعى ، متأثرة بالكل الذى يحويها ومؤثرة فيه ، ومتأثرة ببعضها البعض . وعلى أساس هذه الصورة الدينامية أوضحنا أن اجتماعها وتفاعلها معاً شرط تحقق درجة عالية من التكامل الاجتماعى . وللبرهنة على ذلك ضربنا بضعة أمثلة لجماعات تتحقق فيها بعض العوامل دون الأخرى ، فتكون النتيجة انخفاض درجة تكاملها .

وقد أشرنا إلى ضرورة التنبه إلى بعض الجوانب السيكولوجية ذات الأهمية الخاصة فى تحقيق هذه العوامل لوظيفتها . فالاشتراك ينبغى أن يكون اشتراكا فى الاهتمامات ، وتقسيم العمل ينبغى أن يتضمن الشعور بوحدة المشروع ، والتواصل ينبغى أن يتيح الفرصة لظهور الفوارق الفردية رغم أنه يسعى إلى تقليلها ، ووحدة الهدف ينبغى أن يكون لها وجود فى الواقع السيكولوجى للأعضاء ، كما أن الهدف ينبغى أن يكون مقبولا .

وقد اعتمدنا فى الوصول إلى نتائجنا هذه ، على البحوث التجريبية فى علم النفس الاجتماعى ، وعلى بعض الدراسات الاجتماعية والأنثروبولوجية .

الفصل الرابع

شروط التكامل الاجتماعى

(١) شروط خاصة بالبيئة

العوامل والشروط :

إن التفرقة بين عوامل التكامل وشروطه تفرقة اصطلاحية فحسب ، الغرض منها تيسير عملية التحليل العلمى التى تهدف أساسا إلى عزل متغيرات المجال لإمكان تحديد العلاقات القائمة بينها من ناحية ، والقائمة أيضا بينها وبين الكل الذى يضمها . فلا ينبغى إذاً أن تغيب عن أذهاننا دينامية الموقف أى تفاعله المتصل وتبادل التأثر والتأثير بين متغيراته التى هى نفسها عمليات . وأساس هذه التفرقة التى عقدناها بين مجموعتين من المتغيرات ، أطلقنا على إحداهما اسم « العوامل » والأخرى اسم « الشروط » أن العوامل أقرب نسبيا إلى الظاهرة من الشروط . بعبارة أخرى يمكن اعتبار العوامل بمثابة الأسباب المباشرة ، والشروط بمثابة الأسباب غير المباشرة . كما أنه يمكن اعتبار الشروط بمثابة « بيئة » يتم فيها فعل العوامل . ولا تتعارض هذه التفرقة — النسبية — مع التصور الدينامى للموقف ، إذ أن ديناميات أى جشطلت لا تعمل دائماً فى مستوى واحد .

درجة تصلب البيئة :

نقصد بدرجة تصلب البيئة مدى معارضتها لحاجات الشخص ومطالبه ، مهما يكن مظهر هذه المعارضة . فقد تختلف المظاهر فى المواقف المتعددة ، لكن الدلالة الدينامية تظل واحدة من ورائها جميعا . ويمكن تصوير الموقف فى

هذه الحال على النحو الآتى : أى اختلال فى اتزان الشخص مع بيئته (نتيجة ظهور بعض حاجات لديه تطلب الإشباع ، ويلاحظ أن هذه الحاجات ليست سوى السبب المباشر فقط لاختلال الاتزان) يستتبع محاولات من الشخص لإعادة تنظيم الموقف سعيًا وراء تكيف جديد . وبقدر وقوف جوانب البيئة المختلفة كعقبة تحول دون تحقيق هذا التكيف الجديد يقال عن البيئة إنها على درجة معينة من الصلابة . والمهم هنا أن نتتبع هذه الحقيقة الدينامية فى مظاهرها المختلفة .

وقد أشار لڤين K. Lewin إلى أحد هذه المظاهر تحت اسم « نطاق الحركة الحرة داخل الجماعة » . ذلك أن انتماء الشخص إلى جماعة لا يعنى ضرورة اتفاقه معها فى جميع أهدافها وقواعدها وأسلوب حياتها وتفكيرها . بل تظل للشخص بضع أهداف لا يشاركه فيها جميع الأعضاء . وهذه تتطلب « نطاقًا معينًا للحركة الحرة داخل الجماعة » يسمح بمتابعة تلك الأهداف وإرضاء ما يتعلق بها من رغبات . وكلما ازداد ضيق هذا النطاق المسموح به ازداد شعور الشخص بالإحباط ، فإذا اشتد هذا الإحباط فقد يدفعه ذلك إلى الانفصال عن الجماعة ، بل وقد يسعى إلى تدمير حياتها . على هذا الأساس نستطيع أن نفهم كيف أن عدم إشباع الحاجة الجنسية داخل الأسرة يؤذى كيانها . (K. Lewin 1948'a') ، كما أننا نستطيع أن نلقى بعض الضوء على أسباب تخلخل العلاقات بين المراهق وأسرته .

وفى تجربة ليبيت وهوايت R. Lippitt & R. White يتجلى ضيق نطاق الحركة الحرة داخل الجماعات التسلطية والفوضوية فى مظهرين : فى الجماعات التسلطية يتجلى فى كثرة أوامر الرئيس وتوجيهاته بدرجة لا تكاد تترك للأعضاء أية فرصة لحرية التصرف . فقد أصدر الرئيس ٢٥٦ أمراً فى الاجتماعات الست ، بينما أصدر الرئيس فى الجماعات الديمقراطية فى نفس المدة ١١ أمرًا فحسب . أما فى الجماعات الفوضوية فتتجلى الحقيقة الدينامية نفسها فى مظهر آخر ، هو جهل

الأفراد إذ لا يجدون أى إرشاد ممن هو أنضج منهم ، ونتيجة ذلك أن تبدو ميادين النشاط مغلقة فى وجه الأعضاء فلا يعرفون أين ولا كيف يبذلون جهودهم . ومن الجلى أن هذين العاملين يلقيان ضوءاً جانبيًا على اتجاه التربية الرشيدة ؛ إذ أن التطرف فى مراقبة الطفل وإصدار الأوامر المتلاحقة ، أو تركه « للقوى الطبيعية تفعل فعلها » ، كلاهما يؤدى إلى نتيجة واحدة هى استعداداته التكيفية عن النمو والتفتح . فى حين أن التوجيهات التى تظل فى حدود المساعدة على تحقق الإمكانيات هى التى تستطيع أن تصنع الشخصية المتكاملة . وقد أجرى شرام G.J. Schramm تجربة فى هذا الصدد ، توضح أثر حرية الحركة فى عملية التكيف .

مادة التجربة :

٢٢ طفلا ، منهم ١٥ ذكور ، و ٧ إناث (تتراوح أعمارهم بين ٣٦ — ٦٤ شهرا) .

الطريقة :

(ا) يُمنع الطفل من الحركة ، ويُحرك حيوان ما قربا إليه وبعداً عنه .

(ب) تطلق للطفل حرية الحركة ، وتمنع حركة الحيوان .

(حـ) تلاحظ الاستجابات الانفعالية الصادرة من الأطفال نحو الحيوان فى الحالتين .

(د) أما الحيوانات فهى : ضفدعة صغيرة — ضفدعة كبيرة — فأر أبيض — أرنب — ببغاء .

النتيجة :

يكون تكيف الطفل أفضل فى المواقف التى يسمح له فيها بحرية الحركة (G. Murphy & others 1937, p. 150) وعلى ضوء هذه الدراسة التجريبية وأمثالها نستطيع أن ندرك الدلالة الدينامية لعدد من ظواهر الحياة الاجتماعية . فحيثما ازداد تصلت البيئة لأى سبب من الأسباب يغلب سوء التوافق [1] وتكثر مظاهر السلوك

(١) maladjustment

المنحرف . وكثير من الدراسات الحديثة التى تتبع درجة الارتباط بين أنماط العصاب أو الذهان وبين ظروف البيئة الاجتماعية تثبت هذه الحقيقة بالدليل الإحصائى ، وتشفع ذلك عادة بالتفسير الذى يوضح كيف أن الارتباط هنا ارتباط دينامى وليس مجرد « وجود معا » بمحض الصدفة .

يقرر كاتل R.B. Cattell أن معظم التقارير الإكلينيكية تدل على وجود ارتباط واضح بين الجناح[١] وبين المركز الاجتماعى ؛ فهو والاضطرابات السلوكية بوجه عام يزداد فى الطبقات الدنيا من المجتمع[٢] (R.B. Cattell 1945 'b'). كما يقرر أيضاً أن الدراسات الحديثة تدل على أن أنواع الذهان الواضحة يكثر ظهورها فى الطبقات الاجتماعية الدنيا[٣] (R.B. Cattell 1945 'a'). والصلة واضحة بين طرفى هذه الحقيقة ، فمن ناحية تصلب شديد فى بيئة هذه الطبقات الاجتماعية الاقتصادية يحول دون إشباع الكثير من مطالب الحياة ، ومن ناحية أخرى أثر ذلك فى ظهور التوترات لدى الأشخاص مما يترتب عليه ظهور هذه المظاهر السلوكية المنحرفة. ويرى لفين K. Lewin أن التوترات والصراعات المترتبة على تصلب البيئة تتأثر — إلى حد ما — بظروف أخرى فى موقف الشخص أو الطبقة . ومن ثم فإنه يقرر أن الطبقة الوسطى تتعرض لأكبر درجة من الصراع ، أكبر مما تتعرض له كل من الطبقتين العليا والدنيا . ويرى أن هذه الدرجة المرتفعة من الصراع نتيجة للتفاوت الشديد بين المستوى الذى تريد هذه الطبقة أن تبقى عنده وبين قدرتها الاقتصادية على تحقيق هذه الرغبة (K. Lewin 1947) . وتوضح روزالند جولد

---

(١) Delinquency

(٢) Burt, C.L. *The Young Delinquent*, New York : Appleton, 1925. (through R B. Cattell 1945 'b').

Shaw, C.R. & Mckay, H.D. *Juvenile Delinquency and Urban Areas*, Chicago : Univ. Chicago Press, 1942. (through R.B. Cattell 1945 'b').

Jaffe, A.J. & Shanas, E. Economic Differentials in the Proplem of Insanity, *Amer. J. Soc.*, 1939, 44. (through R.B. Cattell 1945 'a').

Zubin, J. The Economic Aspects of Mental Disease, *Amer. Assoc. Adv. Sci.*, No. 9, 1940 (through R.B. Cattell 1945 'a').

R. Gould هذه الحقيقة بقولها إنه حيثما بدت البيئة محتوية على إمكانيات لتحسين المستقبل ارتفع مستوى الطموح[1] وبالتالى ازدادت مطالب الشخص نحو بيئته واشتد إلحاحه فى الوصول إليها ، وهذا هو الوضع بالنسبة لأفراد الطبقة الوسطى. ولكن حيث تنعدم هذه الإمكانيات ينخفض مستوى طموح الشخص كرد فعل دفاعى ، مخافة أن يصدم فى مستقبله صدمة لا يحتملها (R. Gould 1941) وقد توصلت الباحثة إلى هذه النتائج من خلال بحث تجريبى فى أثر العوامل الاجتماعية فى مستويات الطموح . ولما كان لهذا البحث أهميته فى توضيح الموضوع الذى نحن بصدده فإننا نوجزه فيما يلى :

أجرت الباحثة تجاربها على ٨١ طالبًا من طلاب إحدى الجامعات تتراوح أعمارهم بين ١٦ و ٢٥ سنة . وكانت الظاهرة التى تدرسها هى مدى الاختلاف بين « تقدير الفرد لما سينجزه » وبين « ما ينجزه فعلا » .

ثم تناولت المتطرفين نحو أى من الطرفين (أعلى درجة من الاختلاف أو أقل درجة) ويبلغ عددهم ٤٢ طالبا . (٢١ فى كل طرف) . وقصدت إلى المقارنة بين المجموعتين .

النتائج :

لاحظت الباحثة أن المجموعة التى سجلت أقل درجة من الاختلاف بين مستوى الطموح وبين التحقيق الفعلى ، تقف موقفا ملائما . فهى تأتى من أصول أميريكية بروتستانتية ذات مكانة رفيعة . وأكثر المهن انتشارًا بين آبائهم المهن الفنية العالية. حيث يتراوح الدخل بين ٤٠٠٠ و ١٠٠٠٠ دولار . وفى مقابل ذلك لاحظت أن المجموعة التى سجلت أعلى درجة من الاختلاف تتوفر فيها الصفات الآتية : ٥٥٪ من الآباء أجانب من حيث المولد . و ٦٠٪ يقل دخلهم عن ٤٠٠٠ دولار

(١) level of aspiration

و ٥٥ ٪ ينتمون إلى أقليات دينية . و ١٥ ٪ فقط من الآباء حصلوا على إجازات جامعية .

كذلك لاحظت الباحثة أن ٥ ٪ فقط من المجموعة التى سجلت أكبر اختلاف لم يعملوا فى الصيف لكسب القوت ،

فى حين أن ٢٤٪ من المجموعة التى سجلت أقل اختلاف لم يعملوا فى الصيف لكسب القوت .

وفى حين أن ٥٥ ٪ من المجموعة الأولى كانوا يعملون بعض الوقت أيام الدراسة لكسب القوت .

نجد أن ٨٨ ٪ فقط من المجموعة الثانية كانوا يعملون بعض الوقت أيام الدراسة لكسب القوت ،

و ٩٠ ٪ ممن يعملون فى المجموعة الأولى ينفقون نقودهم على شئون الدرس وحاجات الأهل ،

فى حين أن ٥٠ ٪ فقط ممن يعملون فى المجموعة الثانية ينفقون نقودهم على شئون الدرس وحاجات الأهل .

وفى تعليق الباحثة على هذه النتائج تقرر أن مستوى الطموح يتحدد على أساس نظرة الشخص إلى حاضره ونوع تقديره له ، هل يعتبره نجاحاً أم فشلا :

١ — فإذا كان يعتبره نجاحاً ، فهو راض عنه وبالتالى فالمستقبل (مستوى الطموح) سيكون قريباً منه .

٢ — وإذا كان يعتبره فشلا مؤقتًا فهو غير راض عنه وبالتالى فالمستقبل سيكون بعيداً عنه ليخلص صاحبه منه .

٣ — وإذا كان لا يرى أية إمكانية لتحسينه فسيكون مستوى الطموح منخفضا .

ولذلك نجد الطبقة الوسطى فى المجتمع أشد الطبقات نفوراً من الحاضر وتعلقاً بالمستقبل ، فى حين أن الطبقة الدنيا أقل توترًا ، لأنه بالرغم من أن حاضرها غير مرض فإنه لا يقدم أية فرصة للأمل فى مستقبل أفضل R. Gould 1941

فتصلب البيئة إذاً يترتب عليها ظهور نتائج لا تلائم تحقق درجة عالية من التكامل الاجتماعي ؛ إذ يترتب عليها أحياناً ظهور توترات حادة كالعصاب والجناح والذهان ، وشدة ابتعاد مستوى الطموح عن مقتضيات الواقع ، كما يترتب عليها أحيانا أخرى ظهور الاتجاه الخضوعي[1] الذى يشل كل دافع إلى الخلق والابتكار . وقد أجرى هولينجز هد A.B. Hollingshead بحثاً أوضح فيه أثر تصلب البيئة الاقتصادية للأسرات العمالية فى عدم استقرارها وتفككها ، وهو يعلق على ذلك بقوله ، إذا كان لنا أن نقول أحياناً إن المصائب تقرب بين أعضاء الجماعة ، فإنها فى الوقت نفسه قد تفرق بينهم (A.B. Hollingshead 1950) . كذلك أجرى رادزينوفيتش L. Radzinowicz بحثاً فى أثر الانهيار الاقتصادى فى الإجرام فى بولندة ، وذلك أثناء فترة الأزمة الاقتصادية العالمية التى حدثت فيما بين سنتى ١٩٢٩ و ١٩٣٢ . فانتهى إلى أن اشتداد وطأة الأزمة كان يتبعه فى تناسب طردى ازدياد جرائم السرقة . ولم ينحصر ذلك فى بلدة أو مقاطعة دون سواها بل انتشر فى جميع المدن والمقاطعات ، ولم توجد منطقة واحدة انخفض فيها الإجرام أو بقى ثابتاً (L. Radzinowicz 1941) . وكذلك تكشف الدراسات التى أجريت فى الإحباط عن هذه الحقائق نفسها ، فهو يولد أحياناً أرجاعاً عدوانية ، وأحياناً أخرى يولد أرجاعاً خضوعية . فشريكل H.G. Schrickle يرى أن السبب الرئيسى لتنازع الأفراد والجماعات هو الإحباط . (1945) . وسوتى Suttie يقرر أن العدوان ليس غريزة أولية كما يعتقد فرويد بل رد فعل للإحباط ، فإحباط الطفل عن تبادل الحب يولد فيه القلق والبغض والعدوان ، كما أن الحاجة إلى السلطة والسيطرة التى يعتبرها أدلر A. Adler من المقومات الأساسية للطبيعة البشرية ليست هى الأخرى سوى رد فعل للإحباط (ى . مراد ١٩٤٧) . وفى تجربة ليبيت وهوايت نلاحظ أن بعض الجماعات التسلطية قد ظهرت بين أعضائها مظاهر السلوك العدوانى ، والبعض الآخر ظهرت بين أعضائها مظاهر السلوك الخضوعى .

---

(١) submissive attitude

ويرى مورفى G. Murphy أن الإحباط يؤدى كذلك إلى ظهور سلوك نكوصى يتجلى فى بعث القيم القديمة التى يكون الشخص قد عبرها أثناء ارتقائه (1937 p. 214) . وبوجه عام يؤدى تصلب البيئة فى وجه مطالب الشخص إلى سلوك مضاد لتكامل الجماعة (م . سويف ١٩٤٩) . ويرى جورج رسك G.Y. Rusk أن الطفل يستطيع أن ينمى فى نفسه ضميرا ، أى أنه يستطيع أن يقبل القواعد المفروضة عليه والأوامر وبعض الإحباط لا لشىء إلا لأنه يتعلم بخبرته اليومية أن قبوله لهذه القيود يكسبه بين الحين والحين تعويضات مناسبة . وكذلك لا يشعر بالتضامن الاجتماعى من أبناء المجتمع إلا أولئك الذين يشعرون بأن الجماعة تعنى بحاجاتهم واهتماماتهم . (G.Y. Rusk 1941) .

مدى التكامل بين مناطق البيئة الاجتماعية :

أشرنا من قبل إلى أن المجتمع يتألف من عدد من الجماعات الصغيرة نسبيًا ، تتحقق فيها حالة « النحن » بدرجات متفاوتة . وسنتكلم عن هذه الجماعات فى هذا الموضع باعتبارها مناطق متغايرة فى داخل البيئة الاجتماعية المحيطة بالشخصية. ويرى بارتلت أن من أهم الفوارق بين المجتمع البدائى والمجتمع الحديث أنه كلما ارتقى المجتمع ظهرت فى سلوك أبنائه « آثار عضويتهم فى الجماعات الصغرى » (الداخلية). إذتزداد هذه الجماعات تعدداً وتغايراً. (F.C. Bartlett 1923, p. 257) وتختلف العلاقات القائمة بين هذه الجماعات الداخلية ، فهى تتراوح بين الاعتماد المتبادل من ناحية ، والتعارض والعداء السافر من ناحية أخرى ، وفى الوسط بين الطرفين توجد عدة درجات وأنماط من التقارب والتفاعل . كذلك تختلف درجة النفاذ[1] التى تسمح بها حدودها (R, Thouless 1939) فحدود الأسرة فى بعض المجتمعات لا تسمح بتبادل الأفراد على سبيل الزواج ، لكنها فى مجتمعات أخرى تسمح بذلك ، وحدود الجماعة الدينية لا تسمح بذلك فى كثير من

(١) permeability

المجتمعات ، وحدود بعض الطوائف فى بعض المجتمعات كالهند مثلا تكاد تمتنع على النفاذ ، وحدود الطبقات الاجتماعية الاقتصادية تتفاوت فى هذه الخاصية الدينامية تبعاً لعدة عوامل . على أن درجة النفاذ التى تسمح بها حدود الجماعة لا تتجلى فى تبادل الأفراد فحسب ولكن فى عدة مظاهر أخرى كتبادل الصداقات والقيم .

وثمة حقيقة هامة هى أن الفرد الواحد يكون فى العادة عضواً فى عدة جماعات من هذا القبيل ، فهو عضو فى أسرة معينة ، وفى جماعة دينية معينة ، وفى جماعة مهنية معينة ، وفى جماعة طبقية معينة ، . . . وهكذا . ومن هنا يكون الفرد بؤرة تتجه إليها عدة نظم للمعتقدات[1] غير متكاملة غالباً ، ولما كان الفرد ينزع دائماً إلى التكامل (D. Krech & R.S. Crutchfield 1948, p. 380) محققاً ذلك بوجه خاص فى نظام القيم التى يحملها فإنه يحاول دائماً التوفيق بين هذه النظم المتعددة للقيم . وبقدر ما يكون الاختلاف عميقاً بين هذه القيم (وبقدر تعلق الفرد بها) يكون تعرضه للصراع الشديد الذى يتعارض مع تحقيق درجة سوية من الاستقرار الاجتماعى ؛ وتلك هى بؤرة المشكلة الاجتماعية التى تواجهها المجتمعات فى فترات الانتقال . فأفراد المجتمع يكونون أعضاء فى عدة جماعات داخلية ، تابعين لعدة نظم للقيم يتفاوت حظها من سرعة التغير بما يلائم ظروف الحياة الجديدة ، مما يورطهم فى صراعات حادة . ويكفى أن نتأمل نظام القيم الذى يتلقاه الطفل فى أسرته وجماعته الدينية بتحبيذ الصدق والصراحة ومساعدة الغير . . . الخ ، وكيف يتعارض هذا مع نظام القيم الذى يتلقاه من خلال عضويته فى جماعة مهنية بضرورة حسن التصرف ولو بالكذب والنفاق والسعى إلى النجاح والمجد حتى ولو كان ذلك على حساب الغير .

وقد أجرى أليسون دافيز (A. Davis 1943) بحثاً أوضح فيه كيف أن المجتمع الأمريكى ينقسم إلى عدة جماعات مختلفة ، إثنولوجية وريفية ومدنية

(١) belief systems

وعنصرية واجتماعية اقتصادية ، تقوم كبيئات ارتقائية وتربوية مختلفة ، يكتسب الطفل فيها أشكالاً وقوالب مختلفة للسلوك فيما يتعلق بالأسرة والشق والسلالة والعمل ، كما يرتبط بأهداف اجتماعية متباينة وحاجات مختلفة وقواعد متعارضة أحياناً لتقدير الخطأ والصواب ، ويتلقى المكافآت ويعانى المآزق السيكولوجية المتباينة . وقد أورد قائمة بالتعليمات والقيم المختلفة التى يتلقاها الطفل فى جماعتين مختلفتين من جماعات هذا المجتمع ، هما أسرة من الطبقة الدنيا من المجتمع الزنجى وأسرة من الطبقة المتوسطة من هذا المجتمع (الزنجى الأمريكى) ، ونكتفى بأن نورد منها ما يلى :

قائمة بالتعليمات والقيم المختلفة التى يتلقاها الطفل
فى طبقتين مختلفتين من طبقات المجتمع

فى الطبقة الدنيا	فى الطبقة الوسطى
١ - اضرب من يضربك ، بل اضربه قبل أن يضربك	١ – إذا ضربك أحد فاشكه لأمك أو لأبيك
٢ - يعرف الأبناء والبنات فى سن مبكرة كثيراً من المسائل الجنسية . ويعنى الآباء بإعطائهم المعلومات الدقيقة فى هذا الموضوع ، بل وبإمدادهم بالكتب فى هذا الموضوع أحياناً .	٢ – يكاد الأبناء والبنات يجهلون معظم الأمور الجنسية ويجبنون عن الاقتراب منها ، ويلقون العقاب الصارم إذا اكتشفت لهم علاقة جنسية .
٣ - تكون الزوجات علاقات جنسية خارج الأسرة ، دون أن تلقى استنكاراً أو عقاباً .	٣– إذا كونت الزوجة علاقة جنسية خارج الأسرة فإنها تلقى الاستنكار والعقاب الشديدين .

على أن مثل هذه الدراسات لا تزال ضئيلة ، مع أنها تبدو عظيمة الفائدة فى تفهمنا للجانب الاجتماعى من الأزمة التى تعانيها المجتمعات الحديثة .

والخلاصة أن التفاعل والانسجام بين مناطق المجتمع شرط هام فى تحقيق تكامله واستقراره ، لا يقل أهمية عن شرط مطاوعة البيئة بحيث تسمح بحرية الحركة بالقدر الذى يقتضيه تحقق التوافق السوى .

الفصل الخامس

شروط التكامل الاجتماعى

(٢) شروط خاصة بالشخصية

من الحقائق الهامة فى موضوع التكامل الاجتماعى مدى مطاوعة شخصيات الأعضاء ، واستعدادهم لإعادة النظر فى مواقفهم ، وإعادة تشكيل أنماطهم السلوكية بالتخلى عن اتجاهات وعادات معينة أظهرت خبرات الحياة اليومية عدم كفاءتها ، واكتساب اتجاهات وعادات أخرى أكثر ملاءمة لمقتضيات الموقف الاجتماعى .

وقد أوضحنا فى مواضع سابقة كيف أن التكامل الاجتماعى يعتمد على توفر عدة عوامل وشروط دينامية ؛ من بينها تحقق درجة من التشابه لا غنى عنها بين أعضاء المجتمع ، فى استعداداتهم واتجاهاتهم ونظم القيم التى يتعاملون على أساسها وعاداتهم الحركية والذهنية جميعاً ، ولما كان نمط التكامل المتحقق فى المجتمع البشرى يحتم الالتقاء بين الأعضاء فى مستويات من النشاط متعددة بصورة لا مثيل لها فى التجمعات تحت البشرية ، فإن توفر درجة عالية من المطاوعة فى الشخصية يبدو شرطا لابد منه لتحقق هذا النمط .

إلا أن هذا المفهوم العلمى ، أعنى مفهوم « مطاوعة الشخصية » ، شأنه شأن جميع المفاهيم العلمية ، لا يكتسب أهميته وقيمته كأداة للبحث العلمى تعين على تنظيم الوقائع المبعثرة وبالتالى على زيادة فهمنا وقدرتنا على تفسير الواقع الاجتماعى إلا من خلال المعالجة التجريبية والتحليلات النظرية التى تثريها وتثبت كفاءتها الحقيقية فى أداء مهمتها .

وقد أجرى بالفعل عدد كبير من البحوث داخل نطاق هذا المفهوم ، وكان ذلك بوجه خاص فى الثلاثين سنة الأخيرة بعد أن خفتت دعوى الغرائز نتيجة لجهود عدد من الباحثين ولا سيما بارتلت. وهذا ما يقرره مورفى G. Murphy ويعزو إليه أهمية كبيرة ، إذ يقول إن من أهم الحركات التى تمت فى البحوث السيكولوجية الحديثة ازدياد تقدير وجهة النظر الحضارية (البيئية) ، والتسليم بأن طبيعة الإنسان الباطنية البيولوجية لا تستطيع أن تظهرنا على كثير من جوانب سلوكه ككائن اجتماعى (G. Murphy & others 1937, p. 20) . ويرجع الفضل فى قيادة هذه الحركة الجديدة وتوجيهها إلى عدد كبير من العلماء كل من زاوية معينة . فعلماء الاجتماع والأنثروبولوجيا الاجتماعية جعلوا يوضحون ويؤكدون أهمية الجماعات والنظم الحضارية المختلفة فى تحديد نمط سلوك الفرد واتجاهاته . وعلماء التحليل النفسى والمشتغلون بالعيادات السيكولوجية جعلوا يؤكدون أهمية البيئة العائلية فى الطفولة بوجه خاص ، وكورت لفين والجشطلتيون بوجه عام أخذوا على عاتقهم مهمة تقديم المفاهيم العلمية التى من خلالها يمكن معالجة التفاعلات الجارية بين الشخصية والبيئة مؤكدين بذلك ضرورة المزج بين العوامل الذاتية والموضوعية لفهم السلوك. (ibid p. 337) ويجب أن نضيف إلى هؤلاء أسماء شريف M. Sherif وبرونر J.S. Bruner وجودمان C. G. Goodman وبارتلت وغيرهم ممن تكلموا فى « أطر الدلالة »[1] ، ونفوذ العوامل الاجتماعية فى العمليات العليا كالإدراك والتذكر (D. Krech & R.S. Crutchfield 1948, p. 82) .

هؤلاء جميعاً ساهموا فى تعميق مفهوم مطاوعة الشخصية ، وفصلوا القول فى الكثير من جوانبه . إلا أننا لا نزال بحاجة إلى المزيد من هذه البحوث . ذلك أن البحوث التى أجريت بالفعل لا تزال عاجزة عن أن تقدم لنا صورة واضحة متكاملة عن مضمون هذا المفهوم ، وعن حدود استخدامه . فبعضها متضارب فى نتائجه مع البعض الآخر ، كما أننا لا نستطيع أن نخرج منها برأى واضح مفصل فى

(١) frames of reference

الفرق بين جوانب الشخصية المختلفة من حيث درجة قابليتها للتشكل ، أو برأى مفصل فى الفرق بين جوانب البيئة المختلفة من حيث قدرتها على تشكيل جوانب الشخصية المتعددة .

لكن هذا العجز لا ينفى حقيقة هامة هى أن مفهوم المطاوعة قد استقر فى البحوث الحديثة ، وأننا من خلال العدد الكبير من البحوث التى أجريت وبرغم تضارب بعض نتائجها ، نتقدم فعلا نحو زيادة توضيح هذا المفهوم وزيادة كفاءته كأداة من أدوات البحث العلمى . ويلخص لابيير وفارنزورث R.T. Lapiere & P.R. Farnsworth هذا التقدم بقولهما : كان الرأى الشائع لدى الدراسين الأوائل لسلوك الأطفال ، أن الأطفال يولدون مزودين بانفعالات ثلاثة ، الخوف والغضب والحب . أما الرأى السائد الآن فهو أن المرء يولد مزوداً بإمكانيات فقط لسلوكه الوجدانى المقبل (R.T. LaPiere & P.R. Farnsuorth 1942, p. 38) . على أن هذا القول يؤرخ للتقدم منذ سلوكية وطسن ، ويمكن أن نبعد حدوده التاريخية إلى ما وراء ذلك حيث القول بالغرائز عند مكدوجل وحيث التضخيم من شأن العوامل الوراثية فى أواخر القرن الماضى كما أنه يخص بالذكر الجانب الوجدانى من السلوك ، ويمكن تعميمه بحيث يشمل الجوانب الأخرى كذلك .

وقد بينا فى الفصول التى عقدناها على أنتوجينية التكامل الاجتماعى كيف أن الطفل البشرى يولد على قسط من المطاوعة يفوق كثيراً ما يتوفر منها لدى الصغار فى أى مستوى آخر من مستويات السلسلة الحيوانية ، وذكرنا أن كثيراً من الدلائل تدل على أن درجة مطاوعة الكائن تزداد بازدياد درجة ارتقائه ، وأن من أهم الدلائل على ذلك ازدياد المدة اللازمة للحضانة ، وازدياد القدرة على الاكتساب . وهذه الحقيقة التى ذكرناها فى الفصول الأنتوجينية هى نفسها التى نعود فنؤكدها هنا ، ونزيد من توضيحها .

* * *

١ — تكشف البحوث الأنثروبولوجية والاجتماعية بتفصيلها القول فى الأنماط

الحضارية المختلفة وفى أساليب التفكير والتعامل والقيم التى تتعامل القبائل والشعوب المختلفة على أساسها تكشف بوجه عام عن شدة مطاوعة الشخصية واتساع إمكانياتها، كما تكشف عن أن هذه الإمكانيات عندما تتشكل تتخذ أشكالاً معينة تلائم النمط الحضارى السائد. وهذا ما أوضحه كاتس وشانك فى أحاديثهما عن طابع الشخصية السائد فى كل من مجتمعات الاسكيمو (فى جرينلند) والماورى (فى نيوزيلنده) والزونى (فى نيوميكسيكو) (D. Katz & R. Shanck 1947, p. 519) وما أوضحته روث بندكت فى بحوثها فى مجتمعات هنود السهول، والزونى، والكواكيوتل (فى الساحل الشمالى الغربى) والدوبوان (فى ميلانيزيا) (R. Benedict 1951) وما أوضحه لوسيان ليفى بريل فى حديثه عن الأزاندا (فى الكونغو البلجيكية) وعن البانتو والماورى (L.L. Bruhl 1930).

وقد أجرى إيرفنج هالول A.I. Hallowell بحثاً تجريبياً ثبت فيه العامل البيولوجى الوراثى واستطاع بذلك أن يميز أثر النمط الحضارى فى تشكيل الشخصية. وخلاصة هذا البحث أنه اختار قبيلتين من قبائل الهنود الحمر بينهما صلات وراثية واضحة لأنهما ينحدران من عدد قليل من الأصول التى كثر بينهما التزاوج، لكن بينهما اختلافات حضارية راضحة. فإحداهما تقيم على شاطئ بحيرة وينيج وتكثر من الاتصال بالبيض لأغراض سلمية. أما القبيلة الأخرى فتقيم فى أرض داخلية على مساحة مائة ميل من البحيرة تقريباً، وقلما تتصل بالبيض. وقد انتخب الباحث من هاتين القبيلتين مجموعة من الرجال والنساء والأطفال على النحو الآتى:

٣٥ رجلاً و ٢٣ امرأة	من المقيمين بالقرب من الشاطئ.
٣١ » و ١٣ »	من المقيمين بالأراضى الداخلية.

٤٩ طفلا تتراوح أعمارهم بين ٦ سنوات وبين ١٥ سنة و ١١ شهراً من الفريقين معاً. وبتطبيق اختبار رورشاخ لبقع الحبر على هؤلاء جميعاً، تبين ما يأتى:

(ا) الجماعة الساحلية، يغلب على طابع الشخصية فيها « الانبساط ».

أما الجماعة الداخلية ، فيغلب على طابع الشخصية فيها « الانطواء » .

(ب) يغلب على اتجاهات الشخصية فى الجماعة الداخلية «الشك والارتياب ويبدو ذلك بوضوح فى بطء الإجابة على الاختبار .

وعلى العكس من ذلك وجد أن ٥٣ ٪ من الذين أجرى عليهم الاختبار من أبناء الجماعة الساحلية أجابوا فيما لا يزيد على دقيقتين . فى حين أن ١٥ ٪ فقط من أعضاء الجماعة الداخلية أجابوا فى مثل هذه المدة .

كذلك وجد أن ١٦ ٪ من أبناء الجماعة الساحلية أجابوا بعد دقيقة واحدة . ولم يجب أى فرد من أفراد الجماعة الداخلية فى مثل هذه المدة .

(حـ) لوحظ أن الأطفال من الجماعة الداخلية تبدو عليهم الجوانب الانبساطية أكثر مما تبدو على الراشدين . مما يدل على أنه يمكن أن يكون لدى الأطفال اتجاهات انبساطية لكنها سرعان ما تُقمع أو تمنع مع الظهور تحت تأثير عوامل التربية والمعتقدات والطقوس ، وتغلّب الاتجاهات الانطوائية .

(د) ٤٩ ٪ من مجموع الأطفال بوجه عام لم يستغرقوا أكثر من دقيقتين للبدء فى الإجابة . (A.I. Hallowell 1949) .

ومن الجلى أن هذا البحث يلقى ضوءاً لا بأس به على أهمية العوامل الحضارية فى تشكيل الشخصية ؛ وذلك من ناحيتين : الأولى هى وحدة الأصول الوراثية للجماعتين رغم هذه الاختلافات فى أنماط الشخصية والاستجابات الصادرة عنها ، والثانية تشابه استجابات الأطفال من الجماعتين ، مع ازدياد التباين باطراد العمر وازدياد نفوذ آثار عمليات التحضير [1] . كذلك أجريت دراسة تجريبية لمعرفة كيف ينشأ تقارب الشبان البيض الأمريكيين من بعضهم البعض وابتعادهم عن الزنوج وإساءتهم الظن بهم . وذلك بأن أقام الباحث عدة شهور فى قرية أمريكية ، فلاحظ ما يأتى :

أن الأطفال الصغار البيض يُسمح لهم باللعب مع الأطفال الزنوج .

---

(١) acculturation

وبعد فترة معينة من العمر يحرم عليهم هذا اللعب والاختلاط. ويعصى الأطفال هذه الأوامر فى البداية، لكن الآباء البيض يستعينون على تنفيذ رغباتهم بالتأنيب ثم بالضرب.

ويعلق جاردنر مورفى على ذلك بقوله، يبدو من ذلك أنه ليس ثمة شىء غامض من قبيل نمو « الوعى العنصرى » نموًّا تلقائيا. بل المسألة تتم تحت وطأة التوجيه الملح والجزاء. (G. Murphy & others 1937, p. 240)

وقد لوحظ فى دراسات تجريبية أخرى أن الاتجاه العدائى الذى ينمو على هذا النحو لدى الشبان البيض نحو الزنوج له آثاره الواضحة العميقة عند الصبيان فى نهاية مرحلة الدراسة الابتدائية. إذ تنفذ هذه الآثار إلى إدراك الصبى وتذكره وتخيله.

وقد ألقت البحوث الأنثروبولوجية والاجتماعية كثيراً من الأضواء على موضوع « نظام القيم » وكيف يتحدد من خلال النمط الحضارى. وربما كان هذا الموضوع من أهم الموضوعات التى فازت بالقسط الأوفر من عناية الأنثروبولوجيين والاجتماعيين، وكان من أهم نتائج هذه البحوث القضاء على كثير من التفسيرات السطحية باسم الفطرة أو الغريزة التى كان يتقدم بها المفكرون لتفسير ظهور بعض القيم أو ثباتها. فقد فُسر انتشار الأسرة المونوجامية (الزواج بزوجة واحدة) فى وقت من الأوقات على أنه استجابة لمقتضيات الفطرة والغريزة، ثم تبين فيما بعد أن الأسرة بهذا الوضع ليست سوى نمط من الأنماط المتعددة التى تشكلت بها فى تاريخها الطويل. وفُسرت كثير من الدوافع التى يقوم عليها الزواج فى الأسرة الحديثة بأنها من وحى الطبيعة لكن كثيراً من البحوث الحديثة أوضحت أنها ليست إلا من وحى حياتنا الاجتماعية الحاضرة التى تضخّم النزعات الفردية على حساب مقتضيات التكامل الاجتماعى. فالجاذبية الجنسية مثلا التى تتدخل بشكل واضح فى اختيار الزوج لزوجه فى الأسرة الحديثة لم يكن لها هذا الشأن دائماً فى سائر النظم الاجتماعية. بل كان ما يؤهل المرأة للزواج فى كثير من المجتمعات

البدائية مكانتها وامتيازاتها الاجتماعية وألقابها وأهمية هذه الألقاب (J.B. Maller 1938) . كذلك فسر الاقتصاديون فى أواخر القرن الثامن عشر والتاسع عشر الميل إلى الربح من المشروعات التجارية والصناعية الذى كان أقوى دافع وراء النهضة الصناعية فى أوربا بأنه فطرى فى الإنسان حيثما وجد . لكن بحوث مالينوفسكى فى سيكولوجية العمل لدى البدائيين أوضحت مدى نسبية هذا الرأى. فالربح كقيمة لا يكاد يدفع أحداً من أبناء القبائل البدائية إلى العمل . ولكن ليس صحيحاً ما رتبه بعض الكتاب على ذلك من القول بأن هؤلاء البدائيين كسالى خاملون بطبيعتهم أو بحكم ظروفهم الطبيعية . فالواقع أنهم ذوو قدرات فائقة على العمل المتصل ؛ على شريطة أن يكون الدافع إليه واجباً تحتمه بعض معايير القبيلة . أما هذا الحكم عليهم بالخمول فمصدره أننا نحاول أن نطبق عليهم المعايير التى نتعامل نحن بها من خلال نظامنا الاجتماعى الاقتصادى الراهن . (B. Malinowsky 1932, p. 156) .

على ضوء هذه البحوث وأمثالها نستطيع أن نعمق فكرتنا التى قدمناها فى القسم الأول من هذا البحث على سبيل المقارنة بين الجماعات البشرية والتجمعات تحت البشرية ، وذلك بقولنا إن نمط الجماعات البشرية متطور دون أن يكون هذا التطور مشروطاً بتغيرات عضوية فى الأفراد ، وهو ما لا مثيل له فى التجمعات تحت البشرية . وفى ذلك يقول جوليان هكسلى J. Huxley : فى عصر كارليل كان المعروف عن الألمان أنهم ذوو ميول سلمية وفلسفية وموسيقية وفردية ، حتى إذا وقعت الحرب الفرنسية البروسية عام ١٨٧٠ أصبحوا عسكريين متهورين ، ثم إذا بهم فى عام ١٩٤٣ يعبدون الدولة ويتحمسون لها إلى درجة الجنون . فهل تغيرت أصولهم التكوينية بهذه السرعة ؟ كلا . ولكن تغير الجو الاجتماعى الذى يعيشون فيه (J. Huxley 1943, p. 113) .

٢ — إلى جانب البحوث الأنثروبولوجية والاجتماعية أجريت عدة بحوث تجريبية تابعة لميدان علم النفس الاجتماعى ، للكشف عن مدى مطاوعة الشخصية

أيضاً . وقد استعان الباحثون فيها بعدد من المناهج المختلفة . ويمكن تلخيص أهم هذه المناهج فى منهجين : أحدهما يتمثل فى انتقاء عينة من الأفراد تحيا فى ظل بعض الظروف الاجتماعية المتماثلة ، ومحاولة تتبع بعض جوانب الشخصية لدى هؤلاء الأفراد (كالذكاء مثلا وهذا هو الحادث فى معظم البحوث) بالاختبارات والمقاييس المختلفة لتحديد المستوى الذى تبلغه هذه الجوانب فى تحققها من خلال هذه الظروف . ثم اختيار عينات أخرى تحيا فى ظل ظروف اجتماعية أخرى محددة ، ومحاولة تتبع جوانب الشخصية لدى أفراد هذه العينات على النحو السابق ، والمقارنة بين النتيجتين ، مع افتراض الارتباط بين الاختلافات السيكولوجية وأوجه الاختلاف فى الظروف الاجتماعية بين أفراد العينات .

والمنهج الآخر يتمثل فى تثبيت العوامل الوراثية ثم الربط بين تغيرات الشخصية وتغيرات البيئة الاجتماعية . ويكون ذلك بدراسة التوائم المتماثلين[1] (حيث الخصائص الوراثية متماثلة إلى حد كبير) المنشأين فى بيئات اجتماعية مختلفة .

ويشير نيومان M. Newman إلى إمكان الإفادة من منهج ثالث ، يتمثل فى تثبيت أثر البيئة ، وذلك بالمقارنة بين التوائم غير المتماثلين[2] وبين الإخوة العاديين . ولما كنا نعلم أن البيئة فى حالة التوائم غير المتماثلين واحدة إلى حد كبير (إذ يوجدان معاً فى وقت واحد داخل الرحم) ، بينما هى مختلفة فى حالة الإخوة غير التوائم ، ولما كنا نعلم من جهة أخرى أنه لا يوجد تماثل وراثى بين التوائم غير المتماثلين إلا بقدر ما يوجد بين الإخوة غير التوائم ، فإن التشابه الذى قد نجده بين التوائم غير المتماثلين إذ نقارن بينهم وبين الإخوة العاديين يمكن إرجاعه بدرجة كبيرة من الصدق إلى أثر البيئة الواحدة . كما أننا نستطيع أن نقارن كذلك بين توأمين غير متماثلين ظلا بعد الولادة يعيشان فى بيئة واحدة ، وبين أخوين غير توأمين افترقا بعد الولادة مباشرة ونشأ كل منهما فى بيئة مختلفة (M. Newman 1946) .

---

(١) identical twins

(٢) fraternal twins

غير أن هذا المنهج الأخير لا يزال فى حاجة إلى تطبيقات تظهر مدى كفاءته .

ويرى لاپيير وفارنزورت أن المنهج الثانى الذى يتمثل فى ملاحظة الآثار المترتبة على تنشئة «التوأمين المتماثلين» فى بيئتين مختلفتين هو أهم المناهج المستخدمة فى هذا الموضوع. ويمكن الركون إلى نتائجه بدرجة كبيرة من اليقين. لكنهما يثيران الشكوك فى القيمة الموضوعية للمنهج الأول (R.T. La Piere & P.R. Farnsworth 1942, p. 390) على أننا لا نتفق معهما فى إثارة هذه الشكوك ، وكل ما نراه من اعتراضات إنما هى اعتراضات مؤقتة تتلخص فى ضرورة المضى قدما فى سبيل زيادة تحليل البيئة إلى عدد أكبر من المتغيرات حتى يمكن الوصول إلى نتائج أكثر دقة وثباتا ، كما أنه لابد من الاهتمام بكثير من جوانب الشخصية التى لا تزال تلقى الإغفال ، رغم وضوح أهميتها فى عملية التكامل الاجتماعى . ففى محاولة الباحثين أن يثبتوا بعض متغيرات البيئة نجدهم يتحدثون أحياناً عن البيئة « الاجتماعية الاقتصادية » للشخص ، ويعنون بذلك مستوى دخل الأسرة غالباً فى ظل نظام معين من الأثمان لكنهم يتحدثون أحياناً أخرى عن مهنة الشخص أو مهنة الأب ، ويبدو من النتائج التى يحصلون عليها أن هناك نوعاً من التماثل فى هذه النتائج ، فأبناء ذوى المهن الفنية العليا يكونون على درجة عالية من الذكاء ، فى حين يكون أبناء العمال غير الفنيين على درجة منخفضة من الذكاء ، وكذلك يبدو أن أبناء الأسر ذات الدخل المرتفع يكونون على درجة عالية من الذكاء بالنسبة لأبناء الأسر ذات الدخل المنخفض . ومع ذلك فنحن نعلم أن المهن الفنية العالية لا تعنى دائماً دخلاً مرتفعا ، كما أن المهن اليدوية لا تعنى دائماً دخلاً منخفضا. فما هى العلاقة بين هذين المتغيرين ، « دخل الأسرة » و « مهنة الأب أو الشخص » ؟ لا نزال بحاجة إلى توضيح جوانب هذه المشكلة ، وهل يصلح « دخل الأسرة » أن يعتبر متغيراً قائماً هكذا ، أم أنه لابد من تحليله إلى متغيرات أبسط منه ؟ وقد أشرنا فى موضع سابق إلى بعض البحوث التى أجريت على نظام تناول الأجر وما لهذا النظام من تأثير فى سيكولوجية الأفراد . كذلك لابد من الإشارة إلى أن

بعض البحوث الحديثة بدأت تلقى الضوء على تفاوت جوانب الشخصية فى تأثرها بعوامل البيئة الاجتماعية، وهذه النتائج لا تزال بحاجة إلى مزيد من التعميق. (G. Murphy & others 1937, p. 43; R.T. LaPiere & P.R. Farnsworth (1942, p. 32) على أننا كما قلنا من قبل، برغم هذه الاعتراضات جميعاً، نستطيع أن نعمق فهمنا لمطاوعة الشخصية — إلى حد ما — من خلال البحوث القائمة فعلاً.

يقول جاردنر مورفى إن آثار التطبيع الاجتماعى تصل إلى درجة كبيرة من العمق فى الشخصية، حتى إن كثيراً من التقارير التى تذاع عن الفوارق العنصرية من حيث العوامل الفيزيولوجية والغدية بوجه خاص تبدو فى ضوء الدراسات التجريبية المدققة أثراً من آثار الحضارة السائدة. ومن الملاحظات المعروفة أن الرجل الأبيض عندما يذهب إلى الصين ينخفض ضغط الدم لديه حتى يقارب متوسط ضغط الدم عند الصينيين (وهو منخفض نسبياً عادة)، كما أن الطالب الصينى الذى يذهب إلى أمريكا يرتفع ضغط الدم لديه حتى يقارب المتوسط السائد عند الأمريكيين (وهو مرتفع نسبياً عادة) (G. Murphy & others 1937, p. 227) وتدل بعض البحوث على أن الفتيات الدانمركيات فى كوبنهاجن يتأخرن فى بدء سن البلوغ عن الفتيات فى شعوب البحر الأبيض المتوسط فى روما. ويترتب على ذلك طبعاً اختلافات واضحة فى ارتقاء السلوك الاجتماعى لدى الفريقين، ويلاحظ أن هذه البحوث نفسها تدل على أن هذه الاختلافات الفيزيولوجية ليست ثابتة فى وجه جميع الظروف الخارجية؛ فقد تبين أن هذه الفوارق تقل بشكل ملحوظ بين الفتيات الدانمركيات والفتيات الإيطاليات اللاتى يعشن معاً فى الولايات المتحدة الأميركية. وهكذا تغيرت الفوارق العنصرية تحت ضغط الظروف البيئية. وأجرى كلينبرج O. Klineberg عدداً من الاختبارات على مجموعة من الصبيان تتراوح أعمارهم بين العاشرة والثالثة عشرة للنظر فى مدى ثبات الذكاء وجوانب أخرى من الشخصية فى بضع سلالات مختلفة. وقد انتخب الأفراد مادة البحث

على أساس الصفات الجسدية التى يقررها الأنثروبولوجيين الطبيعيون للسلالات المختلفة فى أوربا ، وأهم هذه السلالات النوردى والألبى وشعوب البحر الأبيض المتوسط . وراعى كذلك أن يكون بعضهم من سكان المدن والبعض من سكان الريف . فانتهى إلى النتائج الآتية :

١ — وجود فوارق سيكولوجية واضحة بين سكان المدن بوجه عام (روما وباريس وهامبورج) وبين سكان الريف بوجه عام .

٢ — أما بين سكان المدن أنفسهم فليس ثمة فوارق ملحوظة .

٣ — ليس ثمة اختلافات سيكولوجية واضحة مستقرة بين أبناء السلالات المختلفة .

٤ — لا يمكن أن نستنتج ببساطة أن العامل الرئيسى هو اختلاف « إطار الحضارة القومية » . ذلك أن الصبيان الفرنسيين مثلا كان بينهم فوارق ملحوظة مع أنهم أبناء قومية واحدة . (ibid.pp. 58-67) ويلاحظ أن النتيجة الأخيرة تشير إلى ضرورة تحليل « الحضارة القومية » إلى عدد من المتغيرات أبسط منها .

وفى بحث آخر أجراه كلينبرج انتهى إلى نفس الحقيقة العامة ولكن من طريق آخر. فقد تناول ٤٢٥ صبيًّا زنجيا فى حوالى الثانية عشرة ، (ممن يقيمون فى نيو أورليانز)، قسمهم إلى عدة مجموعات تبعاً لقدوم كل مجموعة إلى المدينة (من الريف) ومدة بقائها فيها ، أو أن يكون بعضهم قد ولد فى المدينة وقضى عمره كله فيها . وبتطبيق اختبار الذكاء القومى National Intell. Test عليهم تبين أن لبيئة المدينة أثراً واضحاً ، يزداد وضوحاً كلما طالت مدة إقامة الشخص فيها . فالذين قضوا فيها أقل من سنة كانوا يصلون فى تقديرهم إلى ٤٠، بينما كان المولودون فيها يصلون إلى ٧٥ . وفى تعليق مورفى على هذه النتيجة يقول إنها تقوم حجة ضد القائلين بأن أهل المدينة أذكى من أهل الريف لا لشىء إلا لأن ذوى الذكاء الوراثى المرتفع هم الذين تجتذبهم بيئة المدينة (ibid. p. 64) .

ويستنتج مورفى من هذه البحوث وأمثالها أن التعبيرات الانفعالية ، والقدرة على النمو العقلى من الجوانب المطاوعة فى الشخصية ، التى تتحدد تبعاً لعوامل حضارية (ibid.pp. 68, 153) . ويستطرد فى موضع آخر فيقول إنه حتى الأسس العميقة للعمليات الكيميائية العضوية فى الفرد لا تقتصر على أن تعكس مجموعة من الخصائص الوراثية بل إنها لتعكس كذلك خصائص العالم الاجتماعى الذى نعيش فيه . فالعالم الاجتماعى لا يتضمن ثنائية ما ، كأن يكون فى حقيقته عالمين أحدهما بيولوجى والآخر حضارى ، بل هو عالم واحد . ونحن مضطرون — فى سبيل الإيضاح فحسب — أن نقسم موضوعنا إلى مستويات (كيميائى وبيولوجى واجتماعى) ، ولكن ينبغى ألا ينسينا ذلك وحدة الكائن (ibid. p. 22) . وهذا ما يقرره أليسون دافيز A. Davis أيضاً ، إذ يقول إن الحاجات الكيميائية العضوية للكائن البشرى لا تعبر عن نفسها إلا فى نظام اجتماعى. وأيّاً ما كان الجانب السلوكى الذى يفحصه الباحث فإن صورته التى يظهر عليها هى دائماً من نتائج البيئة الحضارية التى تؤثر بطرقها الخاصة فى الفرد . وليس ثمة حافز ولا مطلب بيوكيميائى ولا حاجة تستطيع أن تفر من هذه العملية ، عملية التوجيه الاجتماعى من حيث الصورة أو الزمن أو الشروط التى لابد من توفرها لظهورها . (A. Davis 1943)

ومن أوضح الأمثلة التى تهم الباحث فى علم النفس الاجتماعى فيما يتعلق بنفوذ آثار البيئة الاجتماعية إلى سير التفاعلات الكيميائية العضوية فينا ما نعلمه من أن انفعال الخوف الشديد الذى قد نعانيه فى أى موقف اجتماعى يمكن أن يؤثر فى نشاط الغدة الدرقية [1] تأثيراً يبقى لمدد متفاوتة . ومن المعلوم أن زيادة إفراز الغدة الدرقية يعود فينعكس على سلوكنا الاجتماعى بأن يؤدى إلى خفض العتبات الخاصة بالاستجابات الانفعالية ، كما أن الخلل بنقصان الإفرازات يرفع هذه

---

(١) thyroid gland

العتبات كما هو واضح فى حالات الخُدرة[١] والسبات[٢] . كذلك مسألة إيقاع بعض الحوافز كالجوع والعطش ، وانتظام هذا الإيقاع فى دورات معينة ، يمكن القول بأنه يرجع من ناحية إلى التراكم التدريجى لبعض المواد فى بعض الأنسجة ، أو إلى النقص التدريجى لمادة معينة كالماء أو الأوكسيجين ، لكنه من ناحية أخرى لا يمكن تصوره مستقلا عن البيئة الخارجية ، بل هو متغير ومتكيف تبعاً لظروفها . فالدورة الإيقاعية لظهور الانقباضات فى جدران المعدة مثلاً تتوقف على خبرة الشخص ومرانه . فكما أن الشخص يكيف طريقة إشباعه لحوافزه تبعاً لظروف بيئته كذلك نجده يكيف إيقاع هذه الحوافز تبعاً لظروفه

(G. Murphy & others 1937, pp. 791, 225)

كذلك تبدو مطاوعة الشخصية وتشكلها تبعاً لمؤثرات البيئة الاجتماعية من خلال البحوث الكثيرة التى أجريت فى توضيح الارتباط بين الذكاء والبيئة الاجتماعية الاقتصادية ، أو بين الذكاء والوضع المهنى . فقد لاحظ ترمان L.M. Terman فى دراساته على الأطفال الموهوبين ازدياد نسبة الاستعدادات الممتازة فى الجماعات الاقتصادية العليا عنها فى الجماعات الاقتصادية الدنيا . (O. Klineberg 1947, p. 240). كما أثبت كل من فرير D. Fryer وستوك S.M. Stoke ولمان H.C. Lehman وكاتل R.B. Cattell وجود تضايف بين نسبة الذكاء وبين المركز الاجتماعى للفرد . كما أثبت پرسى S.L. Pressy وهاجرتى M.E. Haggerty وناش H.B. Nash وكولنز J.E. Collins وجود ارتباط بين ذكاء الأطفال والمركز الاجتماعى للآباء . (R.B. Cattell 1945 'a') كذلك وجد كولنز J.E. Collins بعض التجانس بين درجات ذكاء الأفراد فى الأسرة الواحدة . فمتوسط نسبة الذكاء فى أسرات أصحاب المهن الفنية العالية حوالى ١١٦ ، وفى أسرات العمال الفنيين ١٠٤ ، وفى أسرات العمال غير الفنيين ٩٥ . فإذا أخذنا برأى فريمن F.N. Freeman القائل بأن البيئة

---

(١) torpidity

(٢) lethargy

الأفضل تستطيع أن ترفع نسبة الذكاء بشكل ملحوظ (١٠ درجات تقريباً فمن الواضح إذاً أن البيئة الاجتماعية على جانب كبير من الأهمية فى التقريب بين أرفع نسبة للذكاء وأقل نسبة. وتلك مسألة على جانب كبير من الأهمية من الناحية الاجتماعية (G. Murphy & others 1937, p. 47). ويفرق نيومان H.H. Newman كما ذكرنا من قبل بين أثر البيئة الاجتماعية بوجه عام فى الشخصية ، وأثر التربية فيها . ويقول إن الحديث فى أثر البيئة أصعب من الحديث فى أثر التربية المدرسية ، لأن التربية المدرسية يمكن حسابها على أساس عدد السنوات المدرسية التى يفوز بها الأشخاص ، وبذلك تمكننا من المقارنة . ويرى أن الوسيلة التى يجب الاستعانة بها لتبين أثر البيئة هى دراسة حالات فردية دراسة استقصائية تتبعية . وفى دراسة قام بها هذا الباحث ، بالاشتراك مع فريمان وهولزنجر K.J. Holzinger عقد فيها مقارنات بين ٥٠ زوجا من التوائم المتماثلين المنشأين فى بيئة واحدة و ٢٠ زوجاً من التوائم المتماثلين المنشأين فى بيئات مختلفة ، انتهى إلى النتيجة الآتية :

متوسط الفرق فى مقياس الذكاء (استنفورد — بينيه) فى حالة التوائم المنشأين معاً فى بيئة واحدة لا تزيد على ٣ , ٥ I. Q. فى حين أن الفوارق فى حالة التوائم المنشأين فى بيئات مختلفة ٢ , ٨ فى المتوسط .

أما الفوارق بين أنماط الشخصية فتكشف بشكل واضح عن أثر البيئة ، أكثر مما تكشف عنه أية فوارق أخرى. (H.H. Newman 1947) وفى دراسة استقصائية يقدم لنا الباحث بعض النماذج من آثار البيئة فى التوائم على النحو الآتى :

(ا) حالة ميلدرد وروث : فيلدرد تبناها مدير أحد البنوك وهو فى الوقت نفسه عمدة لمدينة متوسطة . كان الرجل على جانب كبير من الثقافة ، وكان بيته ملتقى لجماعة من المثقفين ، وقد اشتركت ميلدرد فى هذا الجو ، أما أختها التوأم روث فقد تبناها رجل قليل الحظ من الثقافة ، يعمل كرئيس لعدد من العمال ، وقد حرصت زوجته على أن تبعد روث عن صديقاتها الصغار وألزمتها بالبقاء فى البيت بعد انقضاء اليوم المدرسى تلعب بالدمى وحدها . وقد اختُبرت الأختان

بمعظم اختبارات الشخصية ، فكانت النتائج كما يلى :

١ — روث شخصية مكبوتة ، خجولة ، غير واثقة بنفسها ، ساكنة ، ذات لثغة فى نطقها ، وتعبير بالتعاسة على وجهها . أما ميلدرد فقد كانت أكثر ثقة بنفسها ، غير مضطربة ، كثيرة الكلام ، ذات تعبير على وجهها ينم عن السعادة وليس فى نطقها ما يعيبه .

٢ — ومن الجدير بالذكر هنا أن الأختين لقيتا حظاً متماثلا من التربيـــة المدرسية ، ومع ذلك فإنهما عندما اختبرتا ببعض اختبارات الذكاء كانت النتائج على النحو الآتى : فى حالة اختبار ستانفورد بينيه وأوتس حصلت ميلدرد على ١٥ نقطة أعلى مما حصلت عليه روث .

(ب) حالة التوأمتين مارى ومابل : اختلف حظهما من التربيـــة ، واختلفت بيئاتهما الاجتماعية اختلافا واضحا كذلك . فقد عاشت مارى كل حياتها فى المدينة تكرس وقتها للدراسة الموسيقى وتدريسها . أما مابل فقد عاشت فى مزرعة كبيرة وكانت تشترك فى جميع أعمال المزرعة . وقد أجريت عليهما معظم اختبارات الشخصية وكان عمرهما ٢٩ سنة وقت إجراء هذه الاختبارات . فتبين أن بينهما اختلافات كبيرة فى نمطى الشخصية .

فكانت مابل بطيئة الانفعال (لمفاوية المزاج) [١] . وكانت كذلك عدوانية قليلة المخاوف ، ولا تكاد تهتم للألفاظ النابية . وكانت تمشى كأنها رجل . أما مارى فكانت أكثر استعداداً للإثارة وأسرع إلى الاستجابة ، وكانت أكثر أنوثة فى مشيتها وعاداتها . كذلك كانت نسبة الذكاء لدى مارى حسب مقياس ستانفورد بينيه ١٠٦ I.Q. ولدى مابل ٨٩ I.Q. .

أما فيما يتعلق بأثر التربية كمتغير مستقل ، فنورد الأمثلة الآتية ، من دراسات نيومان أيضا :

(حـ) حالة جلاديس وهيلين : توقفت جلاديس عن الاستمرار فى الدراسة

---

(١) phlegmatic

قبل أن تتمها (وذلك بعد السنة الثالثة) . أما هيلين فقد استمرت حتى أصبحت مدرِّسة . وعلى ذلك تكون هيلين قد حصلت على ١٣ سنة من الانتظام المدرسى زيادة عما حصلت عليه أختها . وقد اختبرت الأختان بالاختبارات الآتية :

اختبار ستانفورد بينيه، فحصلت هيلين على ١١٦ .I.Q فى حين حصلت جلاديس على ٩٢ .I.Q . واختبار أوتس فحصلت هيلين على١٠٦ .I.Q فى حين حصلت جلاديس على ٩٤ .I.Q والاختبار الدولى فحصلت هيلين على ١٨٨ درجة فى حين حصلت جلاديس على ١٤٣ درجة واختبار ستانفورد للتحصيل[1] فحصلت هيلين على عمر عقلى مقداره ١٨ سنة و١٠ شهور . بينما حصلت جلاديس على عمر عقلى مقداره ١٣ سنةو١ شهر .

(د) حالة جيمس وريس : أكمل جيمس تعليمه حتى الدراسة العالية ، فى مدينة صغيرة، فى حين التحق ريس بمدرسة أولية فى الجبال لم تكن تفتح أبوابها لأكثر من خمسة أشهر فى السنة . وقد التحق عندما رغب فى الالتحاق ، ثم انقطع بعد قليل . وقد اختبر التوأمان بالاختبارات التالية :

اختبار ستانفورد بينيه ، فحصل جيمس على ٩٦ .I.Q بينما حصل ريس على ٧٧ .I.Q. واختبار أوتس ، فحصل جيمس على ١٠٤ .I.Q بينما حصل ريس على ٨٤ .I.Q . والاختبار الدولى ، فحصل جيمس على ١٢٤ درجة وحصل ريس على ٨٩ درجة . واختبار ستانفورد للتحصيل ، فحصل جيمس على عمر عقلى مقداره ١٦ سنة . بينما حصل ريس على عمر عقلى مقداره ١٣ سنة و١ شهر .

(هـ) حالة إلينور وجورجيانا : توقفت إلينور عن الدراسة فى نهاية السنة الخامسة . فى حين أتمت جورجيانا الدراسة الأولية والثانوية وقضت ثلاث سنوات فى مدرسة المعلمات . أى أن جورجيانا فازت بعشر سنوات من التعليم أكثر مما فازت به إلينور . وقد اختُبرت التوأمتان بالاختبارات الآتية :

---

(١) achievement test

اختبار ستانفورد بينيه فحصلت جورجيانا على I.Q. ٧٨ وحصلت إلينور على I.Q. ٦٦ واختبار أوتس فحصلت جورجيانا على I.Q. ٨٤ وحصلت إلينور على I.Q. ٦٩ واختبار ستنفورد للتحصيل، فحصلت جورجيانا على عمر عقلي مقداره ١٤ سنة و ١ شهر. بينما حصلت إلينور على عمر عقلي مقداره ١٠ سنوات و ١١ شهر. ومن الجلي أن دلائل مطاوعة الشخصية واضحة في هذه الاختلافات العميقة التي تبدو بين شخصيات التوائم في مختلف جوانبها رغم الاتفاق في الخصائص الموروثة. ويهمنا بوجه خاص أن نلخص النتائج التي انتهى إليها نيومان من عرض الحالات الثلاثة الأخيرة وحالات أخرى مماثلة، فيما يتعلق بأثر التربية في مستوى الذكاء. وهذه النتائج هي :

١ — أن القدرات الذهنية يمكن أن تتحسن إلى حد ما بوساطة التربية.

٢ — في كل حالة من الحالات الثلاثة السابقة يقرر أنه لولا الفرق في التربية لاستطاع التوأم المتأخر أن يبلغ ما بلغه التوأم المتقدم، وذلك لأن الإمكانيات الموروثة في التوأمين متساوية.

٣ — لو أن الاختلافات في حظ كل من التربية كانت أكبر مما رأينا في الأمثلة السابقة لكانت الفوارق في نسب الذكاء أكبر هي الأخرى. وعلى ذلك فنسبة الذكاء لا تنفرد الوراثة بتحديدها. لكنها إمكانية مطاوعة قد ترتفع أو تنخفض عدة نقاط تبعاً لطراز التربية ومقدارها.

٤ — الاختلافات الطفيفة في التربية لا تحدث فارقاً يستحق الذكر في القدرات العقلية (H.H. Newman 1947).

ومن البحوث التي تكشف أيضاً عن مطاوعة الشخصية تجارب بارتلت في التذكر، إذ تعتبر من المحاولات الممتازة للكشف عن العوامل الاجتماعية في تشكيل عملية التذكر. وقد امتدت جهوده في هذا السبيل مدى عشرين سنه. وتبين

أن المشكلات التى كانت تواجه الأشخاص موضوع تجاربه كانت تؤثر فى إدراكهم وفى تذكرهم . وأن ما يؤثر فى إدراك الموقف الراهن بإبراز أحد جوانبه يؤثر كذلك فى تذكر هذا الموقف . ولاحظ كذلك خلال بحثه فى التذكر عند البدائيين أن هذه العملية وعملية الإدراك مشروطتان بالاهتمامات الحضارية للجماعة (G. Murphy & others 1937, p. 222). كذلك تعتبر تجارب شريف M. Sherif ذات أهمية بالغة فى الكشف عن أثر الحياة الاجتماعية فى عمليات الإدراك . وقد أوضح أن كل مدرك فى العالم الاجتماعى يعتمد على إطار معين لتعيين دلالته . وهذا الإطار يرجع تكوينياً إلى عدد من الأطر المبكرة . ومن النتائج التجريبية التى توصل إليها عن أثر الإطار الاجتماعى فى الإدراك ما شاهده عند أفراد قبائل التروبرياند من أنهم يقررون أن الأبناء يشبهون الآباء لكنهم لا يشبهون بعضهم بعضا ، وعلى أساس هذه الفكرة العامة لا يرون أى تشابه بين الإخوة مع أن الباحث الأنثروبولوجى الاجتماعى يدهش لشدة التشابه بينهم (ibid. p. 220) .

كذلك نستطيع أن نفيد من بعض الدراسات الإكلينيكية فى تعميق مفهوم مطاوعة الشخصية ؛ ففى دراسة قام بها هنت J. Mc V. Hunt نجده يتتبع نشوء بعض أنواع الذهان (النواب)[1] من خلال مجموعة من الظروف النفسية الاجتماعية المحيطة بعدد من الشبان (J. Mc V. Hunt 1949) ومن الجدير بالذكر أن التعليل التقليدى للنواب كان يعتمد على القول باستعدادات وراثية ، لكن الرأى السائد الآن هو أنه لابد من ظروف اجتماعية حادة لكى يتخذ هذا الاستعداد هذه الصورة المرضية . ومن أهم هذه الظروف فقدان المحبوب أو الحرمان الشديد (J.F. Brown 1940, p. 326).

وقد أورد بولبى J. Bowlby موجزاً لعدد كبير من الدراسات التى قام بها باحثون فى عدد كبير من الدول ، تدور كلها حول أثر بعض الخبرات الطفولية الحادة فى تشكيل الشخصية ومدى قابلية الشخصية للتشكل ، لا سيما فى سنوات

(١) manic-depressive psychosis

الطفولة المبكرة ، تحت وطأة هذه الخبرات . وأوضح بكثير من الأدلة كيف أن الانحرافات السلوكية الناتجة مترتبة على التغيرات العنيفة فى البيئة وليست نتيجة خصائص وراثية معينة (J. Bowlby 1951) . كذلك أوضح مالينوفسكى ببحوثه فى قبائل التروبرياند أن نظام الأسرة والنظام الاجتماعى بوجه عام يحددان شكل الصراعات والتعقيدات التى تظهر فى الشخصية . ومن الأمثلة الموضحة لهذه الحقيقة أنه فى مجتمع أمومى [1] كقبائل التروبرياند نجد أن التجاذب الجنسى المكبوت يكون غالباً بين الأخ وأخته أكثر منه بين الأم وابنها كما أن البغض المكبوت يقوم غالباً بين الولد وخاله أكثر منه بين الولد وأبيه (J. Gillin 1949) ومن ذلك يتضح أن النمط الذى يقرره فرويد لعقدة أوديب وليد نظامنا الحضارى ونظام الأسرة فيه . ويرى جون جيلين أن معرفة البيئة الحضارية الاجتماعية للشخصية شرط ضرورى لفهم طرازها السوى وأمراضها . ذلك أنه حتى فى حالات الذهانيين نجد أن معظم مضمون الشخصية مستمد من البيئة الحضارية الاجتماعية. ومن ثم فإنه فى الحالات التى يرجى شفاؤها ينبغى على الطبيب المعالج أن يتفهم جيداً تلك المركبات الحضارية التى امتصها المريض قبل أن يمرض .

وتشير بعض البحوث إلى الفرق بين درجة مطاوعة جوانب الشخصية المختلفة فى تشكلها تبعاً لمؤثرات البيئة . وهى بوجه عام تشير إلى أن مستوى الذكاء أقل مطاوعة من كثير من جوانب الشخصية الأخرى. وتدل بعض البحوث التى أجريت على الأطفال على أن أقل الجوانب تأثراً بتغيرات البيئة جانب الارتقاء العضلى العصبى كما يتجلى فى المشى وسائر ضروب النشاط الحركى والمهارة اليدوية . أما أسرع الجوانب تأثراً فهو الكلام والقدرة التعبيرية . وفى الوسط بين أقل الجوانب وأكثرها تأثراً تقع الاستجابات الاجتماعية (J. Bowlby 1951, p. 20)

هذه البحوث متجمعة تلقى أضواءلا بأس بها على مفهوم مطاوعة الشخصية .

---

(١) matriarchal

ومن الجلى – رغم أن هذه البحوث لا تزال ضيقة النطاق وبحاجة إلى كثير من التوسع والصقل المنهجى – أن هذه المطاوعة شديدة، ولو أننا لا نستطيع أن نقرر أنها لا نهائية[1] . ومن هنا نستطيع أن ندرك أحد الأسباب الهامة فى تحقيق هذا المستوى من التكامل الاجتماعى فى المجتمع البشرى . فهذه المطاوعة تتيح للمجتمع من ناحية أن يشكل الشخصية – إلى حد كبير – بحيث يصنع منها النمط الذى يلائم نظامه وظروفه التاريخية، ويجد أعظم الفرص لذلك فى ازدياد هذه المطاوعة فى فترة الطفولة بوجه خاص ، وطول مدة هذه الفترة بشكل لا مثيل له فى المستويات تحت البشرية . ثم إن هذه المطاوعة نفسها تتيح للشخصية فى المجتمع أن تغير من سلوكها من حين لآخر بما يلائم مقتضيات المواقف الاجتماعية المختلفة ، ومطالب الغير .

على أننا لا نستطيع أن نقتصر فى فهمنا لخاصية المطاوعة فى الشخصية على كونها صفة فطرية يحددها المستوى التطورى للإنسان . فهذا الفهم لا يكفى . بل يلزمنا أن نفهمها بصورة أكثر دينامية ؛ فهى تتأثر بمواقف الحياة المختلفة التى يجتازها الشخص ، ومن هذه المواقف ما يقلل من كفاءتها إلى حد كبير ويطبع الشخصية بطابع التصلب والتحجر . من هذا القبيل مواقف الإحباط الشديد وجميع المواقف المشحونة بالتوترات . فإذا صادفت الشخصية هذه المواقف بشكل متكرر ، وإذا كانت هذه المواقف شديدة الوطأة دائماً كأن تهدد أمن الشخص وطمأنينته أو تكون منذرة إياه بالحرمان من مصدر هام من مصادر شبعه ورضاه ، فالنتيجة شخصية متحجرة إلى حد كبير .

فضيق نطاق الحركة الحرة ، وتصلب البيئة الاجتماعية بوجه عام ، وعدم استقرارها ، والصراع العميق بين قيمها ، من شأنها جميعاً أن تقلل من حظ الشخصية من المطاوعة والقدرة على التكيف . وعلى هذا الأساس نستطيع أن نفهم

---

(١) أوضحنا بعض حدود هذه المطاوعة بشىء من التفصيل ، فى بعض الفصول الأنتوجينية .

قول فرويد إن العصاب يجعل فريسته غير اجتماعية (S. Freud 1940, p. 124). ذلك أن البيئة التى تتمثل فيها هذه الصفات أو بعضها هى أخصب البيئات لاستثارة الأعراض العصابية .

فإذا أضفنا إلى ذلك ما تقرره هورنى K. Horney من أن أخص خصائص بيئتنا الحضارية الراهنة التناقضات السيكولوجية العميقة بين توجيهاتها (G. Murphy & others 1937, p. 365) ، وما يقرره مورفى من خصائص أخرى كالتنافس ، وعدم الاستقرار الاقتصادى ، والإلحاح على فكرة المركز الاجتماعى ، والتعبير العدوانى عن السلطة لدى الراشدين (ibid. p. 345) استطعنا أن نلقى بعض الضوء على أسباب التفكك الاجتماعى البالغ الخطورة فى مجتمعاتنا الحديثة .

والخلاصة أن توفر درجة عالية من مطاوعة الشخصية شرط لابد منه لتحقيق هذا المستوى البشرى الفريد من التكامل الاجتماعى . إلا أن هذه المطاوعة نفسها مشروطة بظروف البيئة وتاريخها .

خاتمة

على هذا النحو ينتهى البحث . وفيما يلى نوجز خطواته ونتائجه العامة .

ليس التكامل الاجتماعى مجرد « حالة » لكنه « عملية » . كما أنه ليس مجرد عملية تجرى فى مستوى واحد ، لكنه عملية تجرى فى عدة مستويات ارتقائية ، وتتشكل فى أنماط وقوالب تختلف باختلاف هذه المستويات . منذ تجمعات النمل والطيور والقردة العليا ، إلى أرقى الجماعات البشرية وأكثرها كفاءة . وقد تقدمنا نحو دراسة هذه العملية على أساس المنهج التكاملى الذى يتلخص فى تناول الموضوع بنظرتين أساسيتين : نظرة ارتقائية ، ونظرة شبكية . الأولى تتبع ارتقاء أنماط التكامل منذ أدنى المستويات إلى أرقاها ، والثانية تتبع التفاعلات داخل كل مستوى لتكشف عن ديناميّاته .

وقد قسمنا القسم الارتقائى من البحث إلى جزئين : جزء فيلوجينى يتتبع ارتقاء الظاهرة فى السلسلة الحيوانية من حيث خطوطها العامة فحسب . والغاية منه أن يزيد من قدرتنا على وضع الفروض العامة فيما يتعلق بتفسير الظاهرة . والجزء الآخر أنتوجينى ، يتتبع ارتقاء السلوك الاجتماعى لدى الفرد البشرى منذ الطفولة المبكرة حتى الرشد . أما القسم الشبكى فقد عمدنا فيه إلى تحليل عوامل التكامل الاجتماعى وشروطه ، كما تبدو من خلال المواقف الاجتماعية المختلفة . وعلى ضوء هذه الدراسة المتعددة الجوانب ، استطعنا أن نصل إلى مجموعة من النتائج تساهم فى إلقاء الضوء على بعض جوانب هذا الموضوع .

فالتكامل الاجتماعى فى جميع مستوياته يتضمن التقارب ، والتفاعل ، وبعض مظاهر التنظيم . وقد أوضحنا كيف أنه فى المستويات الدنيا يكون مشروطاً مباشرة بشروط عضوية محددة ، وكلما ارتفع مستوى النمط اتسعت المسافة بينه وبين

هذه الشروط العضوية ، وأصبحت هـــذه الشروط نفسها أكثر قابلية للتشكل .

وقد حرصنا فى الجزء الفيلوجينى على أن نوضح الصلة بين المستويات الارتقائية المختلفة للتكامل وبين نمو الجهاز العصبى وتغاير أعضاء هذا الجهاز ، وأوضحنا كيف أن تغاير اللحاء شرط لابد منه لتحقق المستويات العليا من التكامل الاجتماعى . فهو يعنى زيادة مطاوعة الكائن ، وزيادة قابليته للتعلم والتشكل ، وزيادة قدرته على التلقى عن الآخرين والاشتراك معهم فى تراث واحد . كما أنه يعنى توفر الشرط العضوى الضرورى لظهور الوظائف العقلية العليا كالتذكر والإبداع والوظيفة الرمزية (القائمة وراء اللغة) ودقة الإدراك (التى لابد منها لإتقان المحاكاة) .

كذلك أوضحنا — فى الجزء الفيلوجينى وما بعده — كيف أن التكامل الاجتماعى لا يعنى فقط الاستقرار الناجم عن اندماج أعضاء الجماعة وتشابه أنماطهم السلوكية ، لكنه يعنى كذلك تطور نمط التنظيم الناتج عن تغاير أعضاء الجماعة وتفاعلهم . وتبينا كيف أن توفر أعلى درجة من الاستقرار والتطور معاً لا يتحقق إلا فى أعلى مستويات التكامل ، أعنى فى الجماعات القائمة على تقسيم العمل الاجتماعى . أما فى المستويات الدنيا فلا يكاد يتوفر إلا أحد الطرفين وحده . ومن الجدير بالذكر أن صفة الاستقرار الذى يصل إلى حد الجمود هى الغالبة على التجمعات الحيوانية ، فى حين أن جماعات الأطفال (من الرابعة إلى الثامنة) تبدو كمجموعات من الأفراد يحتكون على السطح دون اندماج ولا استقرار . فأدنى مراتب التكامل من وجهة النظر الفيلوجينية يغلب عليها الاستقرار إلى درجة الجمود ، وأدنى المراتب من وجهة النظر الأنتوجينية يغلب عليها الإفراد إلى درجة التفكك تقريباً . لكن أعلى المراتب سواء نظرنا بنظرة فيلوجينية أم بنظرة أنتوجينية هى الجماعات البشرية التى يتوفر فيها الاستقرار الدينامى . تلك الجماعات التى تتيح الفرص لإظهار الفوارق الفردية ومن خلالها تتطور إلى أنماط جديدة ملائمة .

وقد بينا فى الفصول الأنتوجينية الأساس العميق لهذه الحقيقة متمثلاً فى نمط

ارتقاء الشخصية، ذلك الارتقاء الذى يمضى دائماً — خلال الظروف السوية — فى شعبتين . إحداهما تتجه نحو زيادة الشعور بالإنية وزيادة استقلال الذات، والأخرى تتجه نحو زيادة الارتباط بالآخرين والاندماج فيهم . وقد عنينا بتوضيح كثير من تفاصيل الارتقاء فى هاتين الشعبتين فى مختلف مراحل النمو منذ الطفولة المبكرة حتى المراهقة ، وذلك بالرجوع إلى مظاهر النمو والارتقاء المتعددة ، ومن خلال تفاعلات الشخصية مع الجوانب الرئيسية فى مواقفها الاجتماعية ، كما عنينا بتوضيح كيفية مساهمة هذا الارتقاء ذى الشعبتين فى الاقتراب بالشخصية النامية شيئاً فشيئا نحو العضوية الاجتماعية المستقرة والمتطورة فى آن معاً . ومن الجدير بالذكر أن ارتقاء جماعات الأطفال يمضى نحو زيادة الاستقرار والتغاير .

وقد زادت الفصول الشبكية هذه الحقائق تأكيداً وتوضيحا . ومن أهم النتائج التى أضافتها هذه الفصول الكشف عن أهمية « مواقف العمل معاً ، فى مشروع واحد . ونحو هدف واحد » وذلك بالكشف عن ديناميا تها .

وعلى ضوء هذه الدراسة يمكن القول بأن نمط التكامل الاجتماعى البشرى ، هذا النمط الفريد ، يرتكز أساساً على دعامتين :

إحداهما : هذا العجز الفطرى الشديد المتمثل لدى الوليد ، وما يتبعه من مطاوعة عظيمة ، وتلهف إلى التحصيل والتعبير — وهذا واضح فيما يختص باللغة — وشدة اعتماد على الآخرين ، واستمرار هذا الاعتماد لمدة طويلة بشكل لا مثيل له فى أى مستوى من مستويات السلسلة الحيوانية .

والثانية : مواقف تقسيم العمل الاجتماعى ، وما تنطوى عليه من ضرورة التواصل والتعاون ، وتعميق الشعور بالحاجة إلى الآخرين .

هذه هى الخطوط العامة للبحث ؛ خطواته الرئيسية ونتائجه فى أهم صورها . ولا جدال فى أننا قد تركنا بعض النقاط الغامضة ، وبعض الثغرات التى لم نستطع أن نوفيها حقها من البحث والاستقصاء . وإذا كنا لا نستطيع الآن تجلية

هذه المسائل ، فإننا نرجو أن تصبح أسباباً لاستثارة الاهتمام الجدى العميق لدى غيرنا من الباحثين ، بالتفكير فى هذا الموضوع ، فما أشد حاجة المجتمعات الحاضرة ، فى أزمتها الحضارية الراهنة ، إلى زيادة الاستبصار بأسس التكامل الاجتماعى ، عسى أن تفيد من ذلك فى توجيه حياتها وجهة رشيدة .

مراجع البحث

Allee, W.C. Relatively Simple Animal Aggregations, *A Handbook of Social Psychology*, C. Murchison ed., London : Clark University Press, 1935.

Alverdes, F. The Behavior of Mammalian Herds Packs, *A Handbook of Social Psychology*, C. Murchison ed., London : Clark University Press, 1935.

Ames, L.B. Development of Interpersonal Smiling Responses in The Preschool Years, *J. genet. Psychol.*, 1949, 74.

Ames, L.B. The Sense of Self of Nursery School Children As Manifested by Their Verbal Behavior, *J. genet. Psychol.*, 1952, 81.

Ames, L.B. & Learned, J. Imaginary Companions and Related Phenomena, *J. genet. Psychol.*, 1946, 69.

Ames, L.B., Ilg, F., Learned. J. & Lockwood, A. The Three-and-a-half-year Old, *J. genet. Psychol.*, 1949, 75.

Anderson, H.H. Domination and Socially Integrative Behavior, *Child Behavior and Development*, R. Barker, J.S. Kounin and H.F. Wright eds., New York : McGraw-Hill, 1943.

Bain, R. The Self-and-Other Words of A Child, *Amer. J. Sociol.*, 1936-41.

Bartlett, F.C. *Psychology and Primitive Culture*, Cambridge : University Press, 1923.

Benedict, R. *Patterns of Culture*, New York : Mentor Books, 1951.

Bergson, H. *Les Deux Source de La Morale et de La Religion*, Paris : Alcan, 1932.

Beveridge, W.I.B. *The Art of Scientific Investigation*, London : Heinemann, 2nd. ed., 1953.

Blumer, H. Science Without Concepts, *Amer. J. Sociol.*, 1931, 36.

Blumer, H. The Problem of The Concept in Social Psychology, *Amer. J. Sociol.*, 1940, 45.

Bowlby, J. *Maternal Care and Mental Health*, Geneva : WHO, 2nd. ed., 1954.

Briffault, R.B. Group Marriage and Sexual Communism, *The Making of Man*, V.F. Calverton ed., New York : Modern Library, 1930.

Brown, J.F. *Psychology and The Social Order*, New York : McGraw-Hill, 1936.

Brown, J.F. *Psychodynamics of Abnormal Behavior*, New York : McGraw-Hill, 1940.

Brown, J.F. The Theory of The Aggressive Urges and War-Time Behavior, *J. soc. Psychol.*, 1942, 15.

Bruhl, L.L. The Solidarity of The individual With His Group, *The Making of Man*, V.F. Calverton ed., New York : Modern Library, 1930.

Buhler, C. *From Birth to Maturity*, London : Kegan Paul, 1937.

Buhler, C. *The Child and His Family*, London : Kegan Paul, 1940.

Cantril, H. Public Opinion in Flux, *Readings in Social Psychology*, T.M. Newcomb & Others eds., New York : H. Holt, 1947.

Cattell, R.B. The Concept of Social Status, *J. soc. Psychol.*, 1942, 15.

Cattell, R.B. Fluctuation of Sentiments and Attitudes As a Measure of Character integration and Temperament. *Amer. J. Psychol.*, 1943, 46.

Cattell, R.B. (a) The Cultural Functions of Social Stratification; I. Regarding The Genetic Bases of Society, *J. soc. Psychol.*, 1945, 21.

Cattell, R.B. (b) The Cultural Functions of Social Stratification : Regarding Individual and Group Dynamics, *J. soc. Psychol.*, 1945, 21.

Collins, M. Modern Trends in Child Psychology, *The Study of Society*, F.C. Bartlett & Others eds., London : Kegan Paul, 1939.

Cohen, J. Analysis of Psychological Fields, *Science News*, Penguin Books, 1949, 13.

Crawford, M.P. The Cooperative Solving by Chimpanzees of Problems Requiring Serial Responses to Color Cues, *J. soc. Psychol.*, 1941, 13.

Das, C. Some Notes On The Economic and Agricultural Life of A Little Known Tribe On The Eastern Frontiers of India, *Anthropos*, 1937, 32.

Dashiell, J.F. Experimental Studies of The Influence of Social Situations on The Behavior of Individual Human Adults, *A Handbook of Social Psychology*, C. Murchison ed., London : Clark University. Press, 1935.

Davis, A. Child Training and Social Class, *Child Behavior and Development*, R. Barker. J.S. Kounin and H.F. Wright eds., New York : McGraw-Hill, 1943.

Dennis, W. Does Culture Appreciably Affect Patterns of infant Behavior, *Readings in Social Psychology*, T. M. Newcomb & Others eds., New York : H. Holt, 1947.

Dewey, J. *Human Nature and Conduct*, New York : H. Holt, 1922.

Durkheim, E. *La Division. du Travail Social*, Paris : Alcan, 1926.

Embree, J.F. Thailand A Loosly Structured Social System, *Amer. Anthropologist*, 1950, 52.

Esper, E.A. Language, *A Handbook of Social Psychology*, C. Murchison ed., London : Clark University Press, 1935.

Eysenck, H.J. *Uses and Abuses of Psychology*, London : Penguin Books, 1953.

Faris, E. The Primary Group : Essence and Accident, *Amer. J. Sociol.*, 1932, 37.

Farmer, E. The Study of Social Groups In Industry, *The Study of Society*, F.C. Bartlett & Others eds., London : Kegan Paul, 1939.

Festinger, L. Laboratory Experiments : The Role of Group Belongingness, *Experiments in Social Process*, J.C. Miller ed., New York : McGraw-Hill, 1950.

Fleming, C.M. *Adolescence*, London : Kegan Paul, 1945.

Flugel, J.C. *A Hundred Years of Psychology*, Andover : Duckworth, 1935.

Form, W.H. Toward An Oceupational Social Psychology, *J. soc. Psychol.*, 1946, 24.

Freud, S. *Totem and Taboo*, The Basic Writings of S. Freud, A.A. Brill ed., New York : The Modern Library, 1938.

Freud, S. Why War, (A Letter Adressed to Prof. A. Einstein, Sept. 1932), *Civilization, War and Death*, J. Rickman ed., London : Hogarth Press, 1939.

Freud, S. *Group Psychology and The Analysis of The Ego*, E. Jones ed., London : The Hogarth Press, 1940.

Freud, S. *The Ego and The Id*, E. Jones ed., London : The Hogarth Press, 1942.

Friedman, H. Bird Societies, *A Handbook of Social Psychology*, C. Murchison, London : Clark University Press, 1935.

Fulton, J.F. *Physiology of The Nervous System*, New York : Oxford University Press, 2nd. ed., 1945.

Gesell, A. & Ilg., F. *Infant and Child in The Culture of Today*, New York : Harper, 1943.

Gesell, A. & Ilg, F. *The Child From Five to Ten*, New York : Harper, 1946.

Gillin, J. Personality Formation From The Comparative Cultural Point of View, *Personality In Nature, Society and Culture*, C. Cluckhohn and H.A. Murray eds., New York : A.A. Knopf, 1949.

Ginsberg, M. The Problems and Methods of Sociology, *The Study of Society*, F.C. Bartlett & Others eds., London : Kegan Paul, 1939.

Ginsberg, M. *Sosiology*, London : Home University Library, 1950.

Goodenough, F.L. *Developmental Psychology*, New York : D. Appleton, 1934.

Gorer, G. The Concept of National Character, *Science News*, Penguin Books, 1950, 18.

Gould, R. Some Sociological Determinants of Goal Strivings, *J. soc. Psychol.*, 1941, 13.

Guillaume, P. *L'Imitation Chez L'Anfant*, Paris : Alcan, 1925.

Gurvitch, G. *La Vocation Actuelle de La Sociologie*, Paris : Presses Universitaires de France, 1950.

Haldane, J.S. *The Philosophical Basis of Biology*, New York : D. Doran, 1931.

Hallowell, A.I. Acculturation Processes and Personality Changes, *Personality In Nature, Society and Culture*, C. Cluckhohn and H.A. Murray, New York : A. Knopf, 1949.

Henderson, D. & Gillespie, R.D. *A Text-Book of Psychiatry*, London: Oxford University Press, 7th. ed., 1950.

Herrick, C.J. A Biological Survey of Integrative Levels, *Philosophy For The Future*, R.W. Sellars & Others eds., New York : Macmillan, 1949.

Holcombe, A.N. The Foundations of The Modern Commonwealth, *Readings In Public Opinion*, W.B. Graves ed., New York : D. Appleton, 1928.

Hollingshead, A.B. Class Differences in Family Stability, *The Annals of The American Academy of Political and Social Science*, 1950, 272.

Hooton, E.A. *Up From The Ape*, New York : Macmillan, 2nd. ed., 1947.

Horrocks, J.E. & Thompson, G.G. A Study of The Friendship Fluctuations of Rural Boys and Girls. *J. genet. Psychol.*, 1946, 69.

Horrocks, J.E. & Thompson, G.G. A Study of The Frieneship Fluctuations of Urban Boys and Girls, *J. genet. Psychol.*, 1947, 70.

Horrocks, J.E. & Buker, M.E. A Study of The Friendship Fluctuations of Preadolescents, *J. genet. Psychol.*, 1951, 78.

Hunt, J. Mc V. An Instance of The Social Origin of Conflict Resulting in Psychoses, *Personality in Nature, Society and Culture*, C. Cluckhohn & H. Murray eds., New York : A.A. Knopf, 1949.

Hurlock, E. *Adolescent Development*, New York : McGraw-Hill, 1949.

Hurlock, E. *Child Development*, New York : McGraw-Hill, 2nd. ed., 1950.

Huxley, J. *The Uniqueness of Man*, London : Readers Union-Ch. & W., 1943.

Huxley, J., Wells, H.G. & Wells, G.P. *The Science of Life*, London : Cassell, 1938.

Irwin, O. The Activities of Newborn Infants, *Child Behavior and Development*, R. Barker, J.S. Kounin and H.F. Wright eds., New York : McGraw-Hill, 1943.

Isaacs, S. *Social Development in Young Children*, London : Routledge, 1933.

Israeli, N. Gesell, A. and Ilg, F.L., Infant and Child In The Culture of Today, *J. genet. Psychol.*, 1945, 67.

James, W. T. Dominant and Sulmissive Behavior In Puppies As Indicated By Food Intake, *J. genet. Psychol.*, 1949, 75.

Jennings, H.H. A Sociometric Study of Emotional and Social Expansiveness, *Child Behavior and Development*, R. Barker, J.S. Kounin and H.F. Wright eds., New York : McGraw-Hill, 1943.

Joussain, A. *Les Classes Sociales*, Paris : Presses Universitaires de France, Collection "Que Sais-je", 1949.

Kardiner, A. *The Psychological Frontiers of Society*, New York : Columbia University Press, 1945.

Katz, D. & Schanck, R.L. *Social Psychology*, New York : J. Wiley, 1947.

Kellog, W.N. & Kellog, L.A. *Le Singe et L'Enfant*, Paris : Libr. Stock., 1936.

King, C. Introduction, *Readings in Public Opinion*, W.B. Graves ed., New York : D. Appleton, 1928.

Klineberg, O. *Social Psychology*, New York : H. Holt, 1947.

Koffka, K. *The Growth of The Mind*, London : Kegan Paul, 1931.

Koffka, K. *Principles of Gestalt Psychology*, New York : Harcourt & Brace, 1935.

Kohler, W. *The Mentality of Apes*, London : Kegan Paul, 2nd. ed., 1931.

Krech, D. & Crutchfield, R.S. *Theory and Problems of Social Psychology*, New York : McGraw-Hill, 1948.

Kuo, Z.Y. The Origin of The Cat's Responses to Rats and Mice, *Recent Experiments in Psychology*, L.W. Crafts, T.C. Schneirla, E.E. Robinson & R.W. Gilbert eds., New York : McGraw-Hill, 1938.

Lalande, A. *Vocabulaire Technique et Critique de La Philosophie*, Paris : Alcan, 1926.

LaPiere, R.T. & Farnsworth, P.R. *Social Psychology*, New York : McGraw-Hill, 2nd. ed., 1942.

Laswell, H.D. Propaganda, *Encyclop. Soc. Sci.*

Latham, A.J. The Relationship Between Pubertal Status and Leadership In Junior High School Boys. *J. genet. Psychol.*, 1951, 78.

Lazarsfeld, R.F. & Others, Social Factors In Voting, *Readings in Social Psychology*, T.M. Newcomb & Others eds., New York : Holt, 1947.

Lewin, K. (a) Environmental Forces In Child Behavior and Development, *A Dynamic Theory of Personality*, New York : McGraw-Hill, 1935.

Lewin, K. (b) The Conflict Between Aristotelian and Galileian Modes of Thought in Contemporary Psychology, *A Dynamic. Theory of Personality*, New York : McGraw-Hill, 1935.

Lewin, K. *Principles of Topological Psychology*, New York : McGraw-Hill, 1936.

Lewin, K. Psychology and The Process of Group Living, *J. soc. Psychol.*, 1943, 17.

Lewin, K. Group Decision and Social Change, *Readings In Social Psychology*, T.M. Newcomb & Others eds., New York : Holt, 1947.

Lewin, K. (a) The Background of Conflict in Marriage, *Resolving Social Conflicts*, G.W. Lewin ed., New York : Harper, 1948.

Lewin, K. (b) Some Social Psychological Differences Between The United States and Germany, *Resolving Social Conflicts*, G.W. Lewin ed., New York : Harper, 1948.

Lewis, M.M. *Infant Speech,* London : Kegan Paul, 1936.

Lippitt, R. & White, R. The Social Climate of Children's Groups, *Child Behavior and Development,* R. Barker, J.S. Kounin and H.F. Wright eds., New York : McGraw-Hill, 1943.

Lippmann, W. *Public Opinion,* New York : Macmillan, 1943.

Luchins, A.S. Social Influences on Perception of Complex Drawings, *J. soc. Psychol.,* 1945, 21.

MacCurdy, J.T. The Relation of Psychopathology to Social Psychology, *The Study of Society,* F.C. Bartlett & Others eds., London : Kegan Paul, 1939.

McGill, V.J. A Psychological Approach to Personality, *Philosophy For The Future,* Sellars, R.W. & Others eds., New York : Macmillan, 1949.

Maisonneuve, J. *La Psychologie Sociale,* Paris : Presses Universitaires de France, Collection 'Que Sais-je', 1949.

Malinowski, B. *The Argonouts of The Western Pacific,* London : G. Routledge, 1932.

Malinowski, B. *Coral Gardens And Their Magic,* London : G. Allen & Unwin, 1935.

Maller, J.B. Cooperation And Competition, *Recent Experiments in Psychology,* L.W. Crafts, T.C. Schneirla, E.E. Robinson & R.W. Gilbert eds., New York : McGraw-Hill, 1938.

Manhattan, A. Of Ants And Men, *The Rationalist Annual,* F. Watts ed., London : Watts, 1950.

Markey, J.F. *The Symbolic Process,* London : Kegan Paul, 1928.

Marmor, J. Psychoanalysis, *Philosophy For The Future,* R.W. Sellars & Others eds., New York : Macmillan, 1949.

Mayo, E. *The Social Problems of An Industrial Civilization,* London : Kegan Paul, 1949.

Mead, G. *The Philosophy of The Act,* C.W. Morris & Others eds, Chicago : The University of Chicago Press, 1938.

Montagu, M.F.A. The Origin And Nature of Social Life And The Biological Basis of Cooperation, *J. soc. Psychol.,* 1949.

Moreno, J.L. & Moreno, F.B. Spontaneity Theory of Child Development, *Sociometry,* 1944, 3.

Morley, D.W. *The Ant World*, London : Penguin Books, 1953.

Mourad, Y., *L'Eveil de L'Intelligence*, Paris : Alcan, 1939.

Murphy, G., Murphy, L.B. & Newcomb, T.M. *Experimental Social Psychology*, New York : Harper, 2nd. ed., 1937.

Murphy, L.B. Social Behavior and Child Personality, *Child Behavior and Development*, R. Barker, J.S. Kounin and H.F. Wright eds., New York : McGraw-Hill, 1943.

Murphy, L.B. Social Factors In Child Development, *Readings In Social Psychology*, T.M. Newcomb & Others eds., New York : Holt, 1947.

Newman, H.H. How Differences In Environment Affected Separated One-Egg Twins, *Readings In Social Psychology*, T.M. Newcomb & Others eds., New York : Holt, 1947.

Newman, M. Measurement of The Minimum Effect of Environment, Using Two-Egg Twins, *J. genet. Psychol.*, 1946, 68.

Olson, W.C. & Whole, B.O. Growth of The Child As A Whole, *Child Behavior and Development*, R. Barker, J.S. Kounin & H.F. Wright eds., New York : McGraw-Hill, 1943.

Parten, M. Social Behavior of Preschool Children, *Child Behavior and Development*, R. Barker, J.S. Kounin & H.F. Wright eds., New York : McGraw-Hill, 1943.

Pear, T.H. Some Problems And Topics of Contemporary Social Psychology, *The Study of Society*, F.C. Eartlett & Others eds., London : Kegan Paul, 1939.

Peristiany, J.G. *The Social Institutions of The Kipsigis*, London : Routledge, 1939.

Piaget, J. *Le Langage et La Pensée Chez L'Enfant*, Paris : Delachaux & Niestlé, 1923.

Piaget, J. *Le jugement Morale Chez L'Enfant*, Paris : Alcan, 1932.

Plath, O.E. Insect Societies, *A Handbook of Social Psychology*, C. Murchison ed., London : Clark University Press, 1935.

Pratt, K.C., Nelson, A. & Sun, K.H. The Behavior of The Newborn Infant, *Recent Experiments In Psychology*, L.W. Crafts, T.C. Schneirla, E.E. Robinson & R.W. Gilbert eds., New York: McGraw-Hill, 1938.

Przyluski, J. *La Participation*, Paris : Alcan, 1940.

Rabaux, E., Grasse, P.P., Lantier, R. & Smets, G. *Les Origines de La Société*, Paris : Alcan, 1931.

Radzinowicz, L. The Influence of Economic Conditions On Crime, *Soc. Rev.*, 1941.

Richardson, J.E., Forrester, J.F., Shukla, J.K. & Higginbtham, P.J. *Adolescence*, London : Kegan Paul, 1951.

Ross, S. & Ross, J.G. (a) Social Facilitation of Feeding Behavior In Dogs : Group And Solitary Feeding, *J. genet. Psychol.*, 1949, 74.

Ross, S. & Ross, J.G. (b) Social Facilitation of Feeding Behavior In Dogs : Feeding After Satiation, *J. genet. Psychol.*, 1949, 74.

Rowan, W., Roule, L. & Ward, H. Migration and The Instinct Problem, *Recent Experiments In Psychology*, L.W. Crafts, T.C. Schneirla, E.E. Robinson & R.W. Gilbert eds., New York : McGraw-Hill, 1938.

Rusk; G.Y. The Methodology of Social Psychology : Social Psychology In Relation to Economics, Ethics and Religion, *J. soc. Psychol.*, 1941, 14.

Schjelderup-Ebbe social Behavior Of Birds, *A Handbook of Social Psychology*, C. Murchison ed., London : Clark University Press, 1935.

Schneirla, T.C. Social Organization In Insects, As Related To Individual Function, *Psychol. Rev.*, 1941, 48.

Schneirla, T.C. Levels In The Psychological Capacities Of Animals, *Philosophy For The Future*, R.W. Sellars & Others eds., New York : Macmillan, 1949.

Schrag, J. Measuring Basic Community Attitudes, *Social. soc. Res.*, 1951, 35

Schrickel, H.G. Group Conflict And Social Reform, *J. soc. Psychol.*, 1945, 21.

Schulte, H. An Approach To A Gestalt Theory of Paranoic Phenomena, *A Source Book of Gestalt Psychology*, W. Ellis ed., New York : Kegan Paul, 1938.

Sherif, M. & Cantril, H. *The Psychology of Ego-Involvements*, New York : J. Wiley, 1947.

Stranger, R. & Osgood, G.E. An Experimental Analysis Of A Nationalistic France Of Reference, *J. soc. Psychol.*, 1941, 14.

Strecker, E.A., Ebaugh, F.G. & Kanner, L. Practical Clinical Psychiatry, Philadelphia : Blakiston, 5th. ed., 1945.

Sumner, W.G. Cannibalism, *The Making of Man*, V.F. Calverton ed., New York : Modern Library, 1930.

Suttie, I.D. *The Origins of Love And Hate*, London : Kegan Paul, 1935.

Taylor, G. Group Dynamics, *Science News*, Penguin Books, 1950, 16

Thomson, G. *Studies In Ancient Greek Society*, London : Lawrence & Wishart, 1949.

Thomson, G. *Aeschylus And Others*, London : Lawrence & Wishart, 1950.

Thouless, R. Problems Of Terminology In The Social Sciences, *The Study of Society*, F.C. Bartlett & Others eds., London : Kegan Paul, 1939.

Thouless, R. The Place Of Theory In Experimental Psychology, *Brit. J. Psychol.*, 1950, 41.

Tredgold, A.F., Tindal, B. & Cox *Manual of Psychological Medicene* London : 1943.

Walker, K.F. Sociology And Psychology In The Prediction Of Behavior, *Psychol. Rev.*, 1941, 48.

Wallon, H. *L'Evolution Psychologique de l Enfant*, Paris : Colin, 1941.

Wallon, H. Le Rôle De L'Autre Dans La Conscience Du Moi, *Egypt. J. Psychol.*, 1946, 2.

Wallon, H. *Les Origines Du Caractère Chez L'Enfant*, Paris : Presses Universitaires de France, 1949

Warden, C.J. & Galt, W. A Study Of Cooperation, Dominance, Grooming And Other Social Factors In Monkeys, *J. genet. Psychol.*, 1943, 63.

Weitzmann, E. A Study Of Social Maturity in Persons Sixteen Through Twenty-Four Years Of Age, *J. genet Psychol.*, 1944,46.

Wertheimer, M. (a) The Laws Of Perception, *A Source Book Of Gestalt Psychology*, W. Ellis ed., New York : Kegan Paul, 1938.

Wertheimer, M. (b) Gestalt Theory, *A Source Book Of Gestalt Psychology*, W. Ellis ed., New York : Kegan Paul, 1938.

Winslow, C.N. & Frankel, M.N. A Quetionnaire Study Of The Traits That Adults Consider To Be Important In The Formation of Friendship With Members Of Their Own Sex, *J. soc. Psychol.*, 1941, 13.

Winspear, A.D. *The Genesis Of Plato's Thought*, New York : Dryden Press, 1940.

Winthrop, H.W. Semantic Factors In The Measurement Of Personality Integration, *J. soc. Psychol.*, 1946, 24.

Wolman, B. Spontaneous Groups Of Children And Adolescents In Israel, *J. soc. Psychol.*, 1951, 34.

Yerkes, R.M. & Yerkes, A.W. *The Great Apes*, New Haven : Yale University Press, 1929.

Yerkes, R.M. & Yarkes, A.W. Social Behavior In Infrahuman Primates, *A Handbook Of Social Psychology*, C. Murchison ed., London : Clark University Press, 1935.

Zuckerman, S. *The Social Life Of Monkeys And Apes*, London : Kegan Paul, 1932.

المراجع العربية للبحث

أيزاك (سوزان) « الحضانة » ترجمة سمية أحمد فهمى ، القاهرة : لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٦ .

جرجس (صبرى) « مشكلة السلوك السيكوباتى » ، القاهرة : دار المعارف ١٩٤٩ .

رمزى (اسحق) « مقاييس الشخصية : اختبار رورشاخ » مجلة علم النفس ، ١٩٤٦ مجلد ٢ .

زيور (مصطفى) « سيكولوجية التعصب » ، مجلة علم النفس ١٩٥٢ مجلد ٧ .

سويف (مصطفى) (ا) « الأسس الدينامية للسلوك الإجرامى » مجلة علم النفس ١٩٤٩ مجلد ٤ .

سويف (مصطفى) (ب) « معنى التكامل الاجتماعى عند برجسون » ، مجلة علم النفس ، ١٩٤٩ مجلد ٥ .

سويف (مصطفى) (ا) « الأسس النفسية للإبداع الفنى » القاهرة : دار المعارف ، ١٩٥١ .

سويف (مصطفى) (ب) « الأزمة الراهنة فى علم النفس الاجتماعى » ، مجلة علم النفس ، ١٩٥١ مجلد ٧ .

عزت (عبد العزيز) « دوركهيم والاتجاه الاجتماعى فى التربية » مجلة علم النفس ، ١٩٥١ مجلد ٧ .

الفندى (محمد ثابت) « الطبقات الاجتماعية » ، القاهرة : دار الفكر العربى ، ١٩٤٩ .

مراد (يوسف) « شفاء النفس » ، القاهرة : دار المعارف (مجموعة « اقرأ ») ، ١٩٤٣ .

مراد (يوسف) « نمو الطفل العقلى وتكوين شخصيته » مجلة علم النفس ، ١٩٤٦ مجلد ٢ .

مراد (يوسف) « الأسس النفسية للتكامل الاجتماعى » ، مجلة علم النفس ، ١٩٤٧ مجلد ٢ .

مراد (يوسف) « مبادىء علم النفس العام » ، القاهرة : دار المعارف ، ١٩٤٨ .

قراءات مقترحة

أولا : فى الفرق بين الحتمية determinism والعلية causality فى العلم ، وكذلك بين الوصف والتفسير (وقد أثيرت هذه المسائل ابتداء من ص ١٤٣ ، يمكن للقارئ المستزيد الرجوع إلى بعض البحوث فى فلسفة العلوم ، مثل :

Born, M. Physics And Metaphysics, *Science News*, Penguin Books, 1950, 17.

Dingle, H. *Science And Human Experience*, 1931.

Frank, P. *Modern Science And Its Philosophy*, 1949.

Toulmin, S. *The Philosophy of Science*, 1953.

ثانياً : فى الفرض hypothesis وحاجة الباحث العلمى إليه ، والشروط التى ينبغى توافرها فى الفرض العامل ، (وقد أثيرت بعض هذه المسائل ابتداء من ص ١٤٥ يمكن الرجوع إلى البحوث الآتية :

George, W.H. *The Scientist in Action*, 1936.

Poincaré, H. *La Science et L'Hypothèse*, 1902.

ثالثاً : فى موضوع المفاهيم العلمية (وقد أثير ابتداء من ص ١٨٢ يمكن الرجوع إلى :

Boring, E.G. The Use of Operational definitions in Science, *Psychol. Rev.* 1945, 52.

Lewin, K. Constructs in Field Theory, *Field Theory in Social Science*, E. Cartwright ed., 1951.

Lewin, K. Frontiers in Group Dynamics, *Field Theory in Social Science*, E. Cartwright ed., 1951.

Pratt C.C. *The Logic of Modern Psychology*, 1939.